قُطُزْ

أَوَّلُ مَنْ هَزَمَ التَّتَار

كتبه

محمد بيومي



مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: قُطُزْ أوَّلُ مَنْ هَزَمَ التتار

اسم المؤلف: محمد بيومي

رقم الإيداع :

رقم الإيداع :

٢٠١١/١٩٦٩٢

الطبعة الأولى ٢٠١١



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد

تتفرد مصر من بين الدول بمزايا كثيرة، إما في تاريخها ، أو في موقعها الجغرافي، أو في اعتدال طقسها، أو في ترابط شعبها، أو في استيعابها للوافدين عليها ، وجعلهم يذوبون فيها ، ويتحولون إلى أبناء من أبنائها.

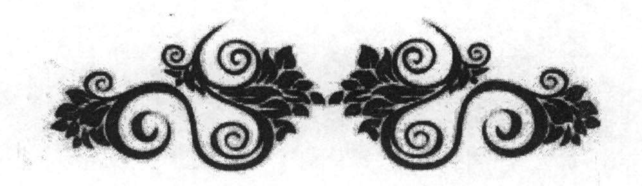
ويذكر التاريخ أن قائدًا مسلمًا محنكًا استطاع – بفضل الله وتوفيقه – أن يهزم التتار في موقعة عين جالوت، وكانت الهزيمة الأولى للتتار الذين عاثوا فسادًا في ديار المسلمين.

وهذا القائد هو المملوك قطز ، الذي أصبح سلطانًا لمصر، ومؤسس دولة المماليك.





أصل كلمة المماليك



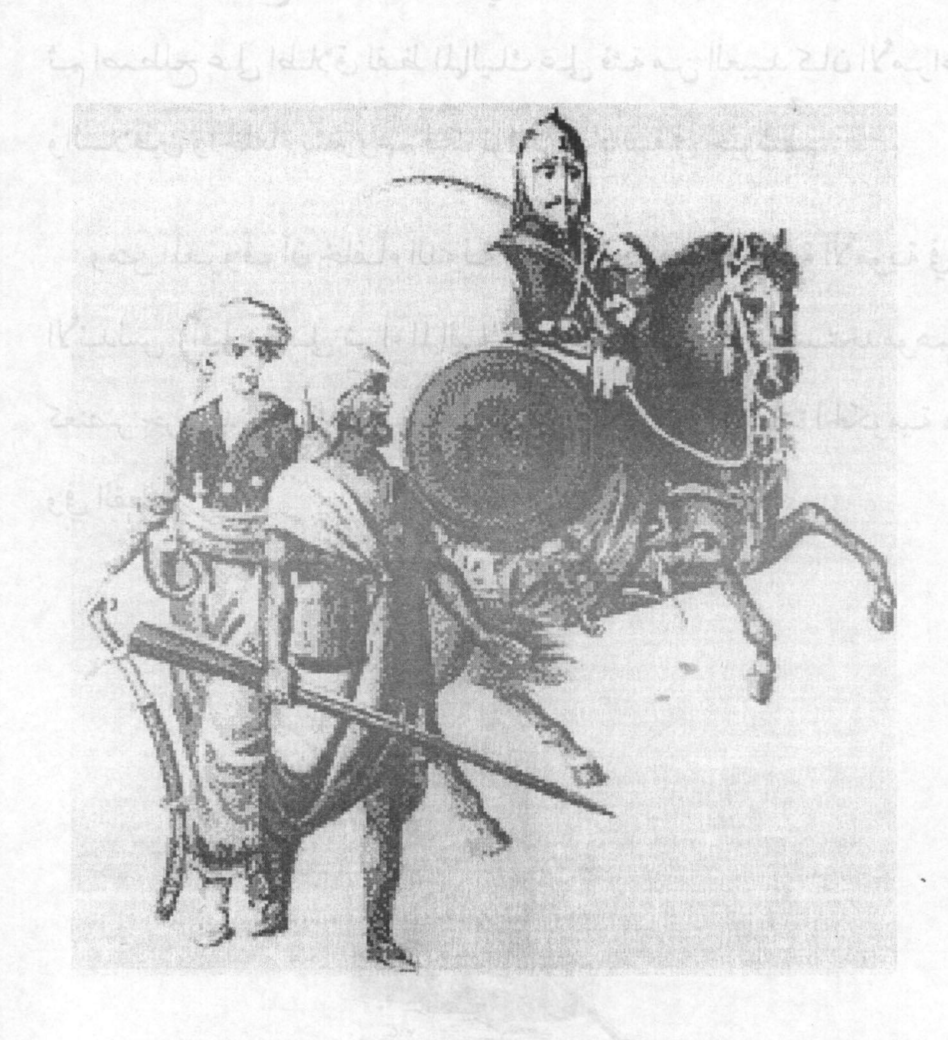
أصل كلمة المماليك

المملوك عبد يباع ويشترى، وسمي مملوكًا لأنه يصير ملكًا لمن اشتراه، ثم اصطلح على اطلاق لفظ المماليك على فئة من العبيد كان الأمراء والسلاطين والخلفاء يشترونهم ليكونوا فرقًا خاصة في جيوشهم.

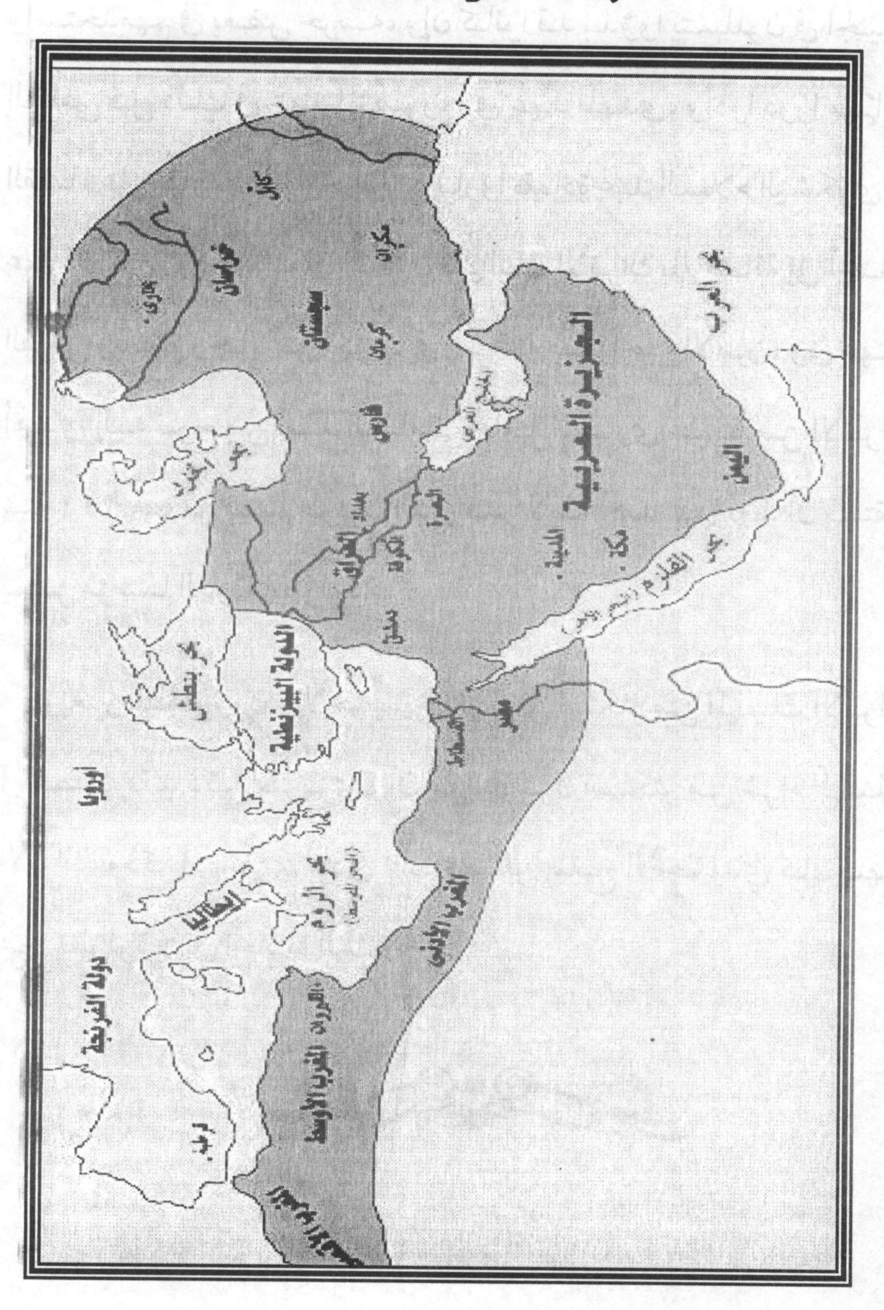
ومن المعروف أن خلفاء الدولة العباسية، وأمراء الدولة الأموية في الأندلس، أقبلوا على شراء المماليك الترك والصقالبة، واستخدموهم كعنصر حربي بديل عن العنصر الفارسي في الجيش، وفي الإدارة الحكومية، وفي القصور



ويعتبر الخليفة المعتصم بالله العباسي «٢١٨ – ٢٢٨ هـ» أول من استكثر من خلفاء بني العباس من استجلاب المماليك الترك لاستخدامهم في الجيش كقوة فتية جديدة، لما كانوا يتصفون به من شجاعة وبسالة في القتال.



خريطة الدولة العباسية

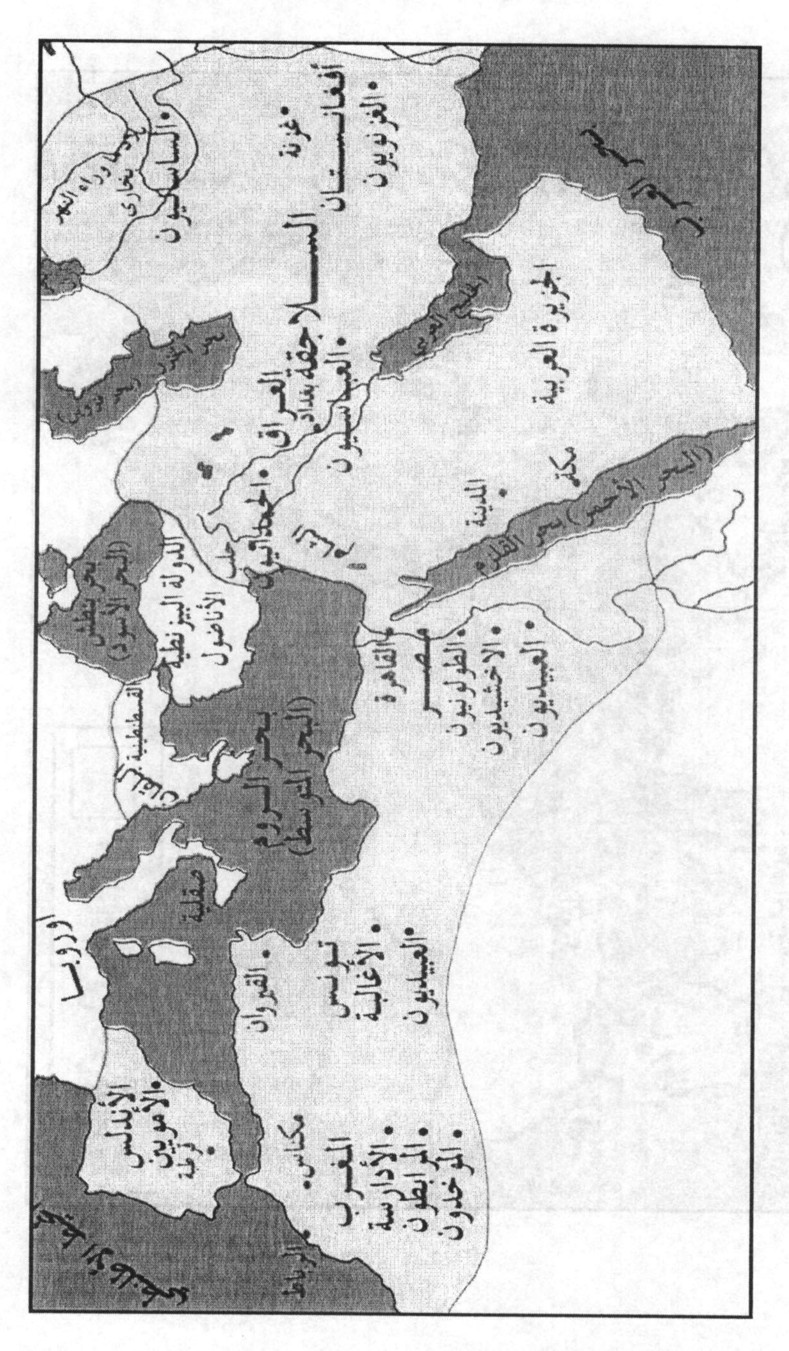


وكان الخليفة العباسي المأمون أول من أقبل على شراء العبيد الترك، واستخدمهم في بعض حرسه، وإن كانوا قد بدؤوا يتسللون في الجيش العباسي قبل ذلك في عهد المنصور، وفي عهد المهدي، وأدوا دورًا مهمًا في القضاء على مقاومة الخوارج الذين ثاروا بقيادة عبد السلام اليشكري في عهد المهدي، وقد استعان المأمون بالمماليك الأتراك بالإضافة إلى أجناده الفرس وبعض رجالات الغرب في صراعه ضد أخيه الأمين، وفي عهده أهدى إليه نوح بن أسد السامائي عامل بخارى غلمانًا من الأتراك سنة ٢٠٠ هـ ، من بينهم طولون الذي قدر لابنه أحمد فيما بعد أن يستقل بمصر مؤسسًا الدولة الطولونية.

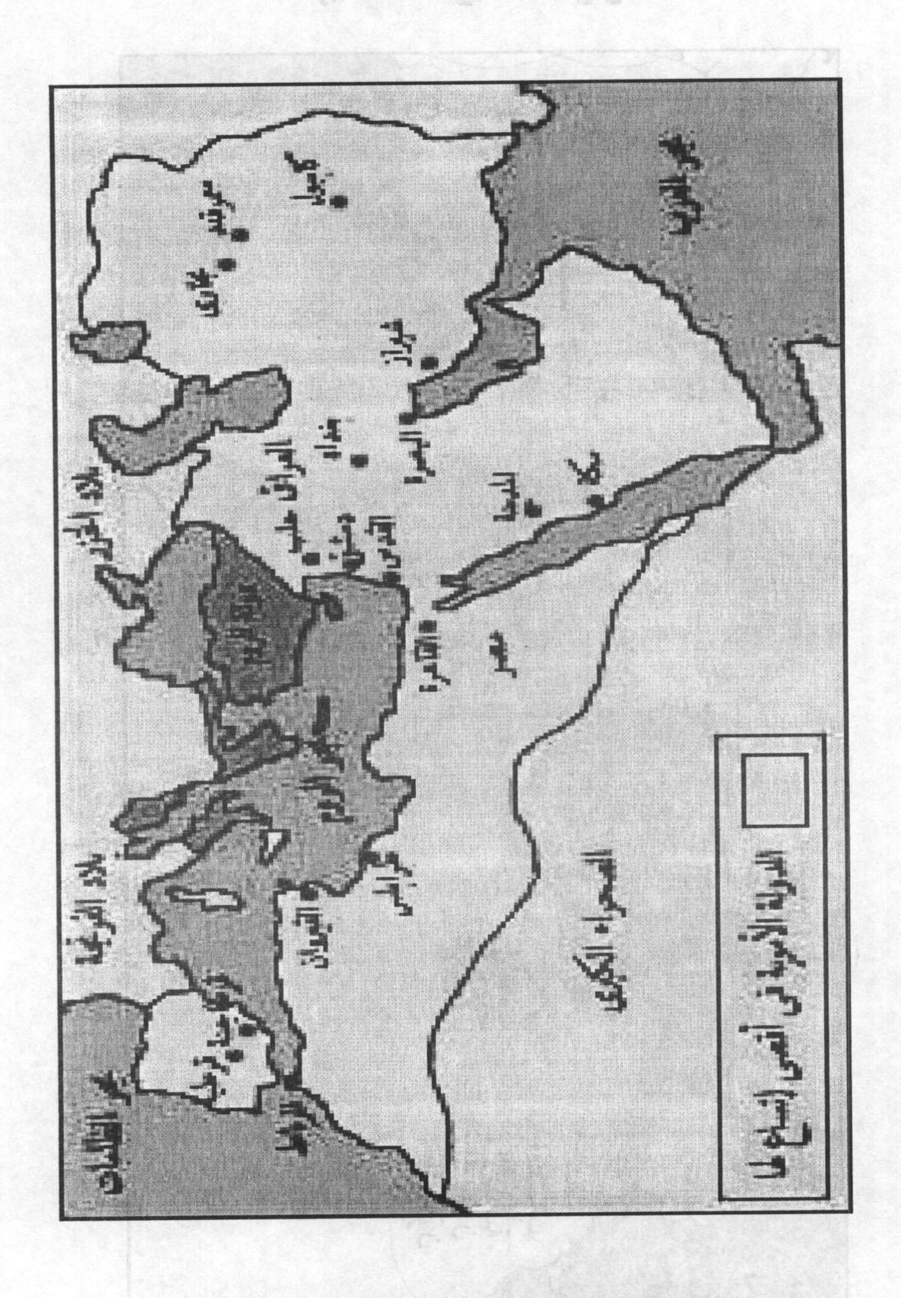
ويعتبر الطولونيون والأخشيديون أول من استكثر من المماليك الأتراك في مصر ، فقد ذكر المقريزي : أن ابن طولون استكثر من شراء المماليك الأتراك، وذكر ابن تغري بردي : أن محمد بن طغج الأخشيدي كان ينهج نهج الطولونيين في اتخاذ المماليك الترك.



خريطة الدولة الطولونية



خريطة الدولة الأموية



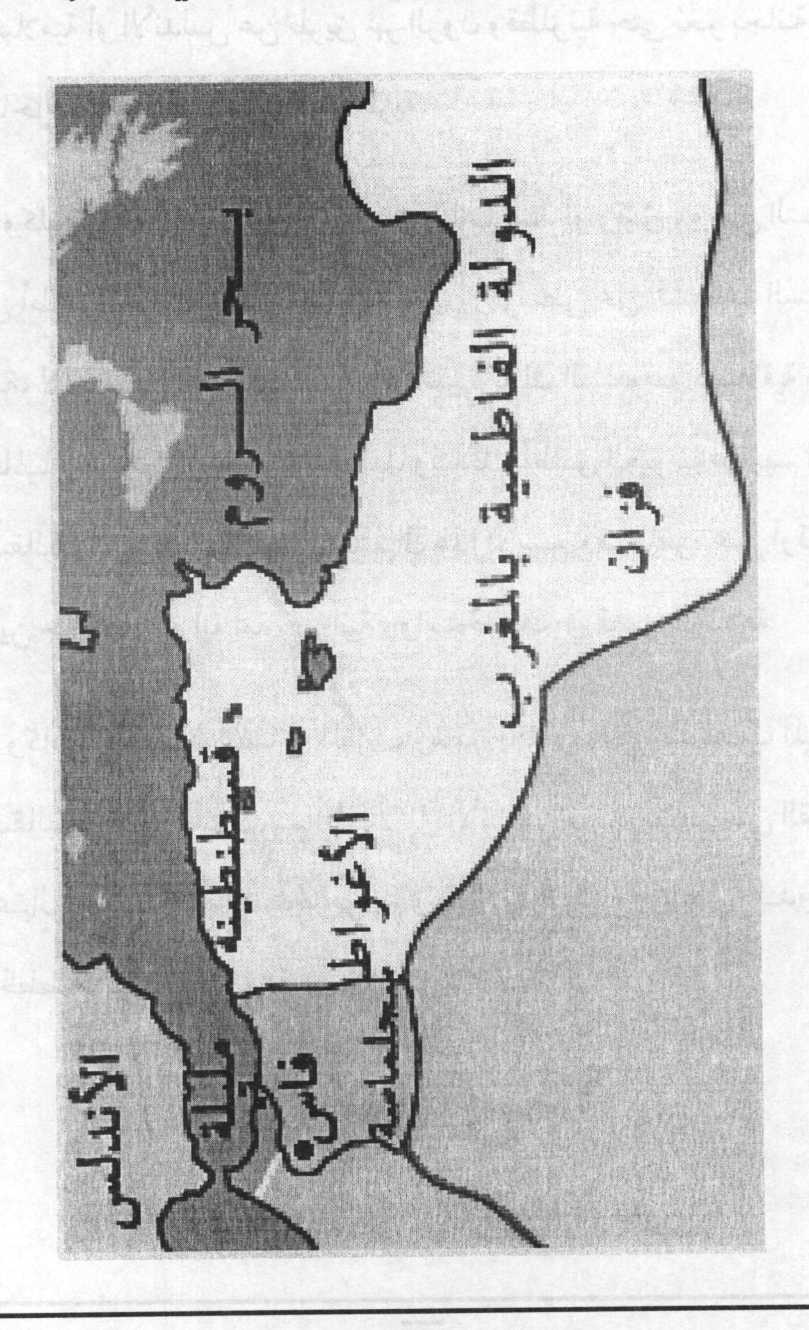
وكان الأمويون في الأندلس يستجلبون المماليك الصقالبة ، الذين كان طريقهم الرئيسي يبتدئ من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى أسبانيا الإسلامية أو الأندلس عن طريق نهر الرون وقطلونية حتى ثغر بجانة على الساحل الشرقي الأسباني بجوار المرية.

وكلمة صقلب فرنسية قديمة ، ومعناها عبد أو رقيق ، وهي التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامة، لأن بعض الجرمان دأبوا على سبي تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها إلى عرب أسبانيا، ولذلك أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة، ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم ، فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوهم من أية أمة نصرانية ، واستخدوهم في قصور الخلافة

وكان الفاطميون أيضًا في المغرب ومصر يكثرون من استجلاب المماليك الصقالبة ، وكانوا يأتون بهم أطفالًا إلى الأندلس، فيدربونهم على القتال، وأعمال القصر ، ثم يستخدمونهم في قيادة الجيش، وفي إدارة الدواوين والخطط الرئيسية في الدولة.

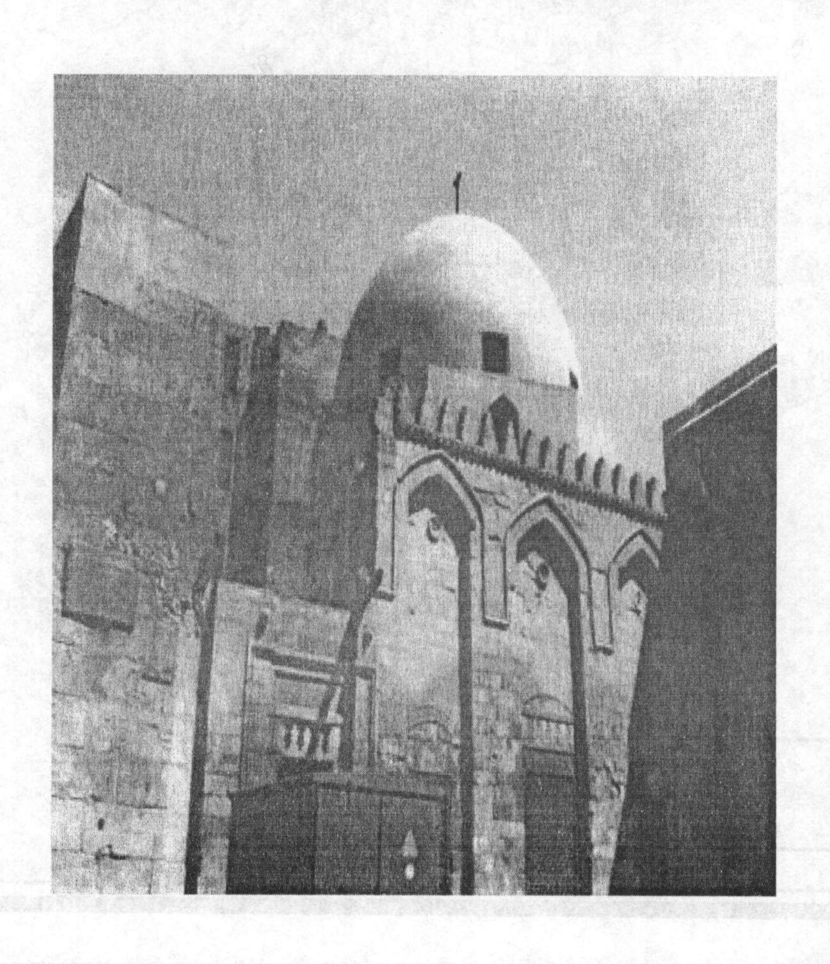


خريطة الدولة الفاطمية في المغرب

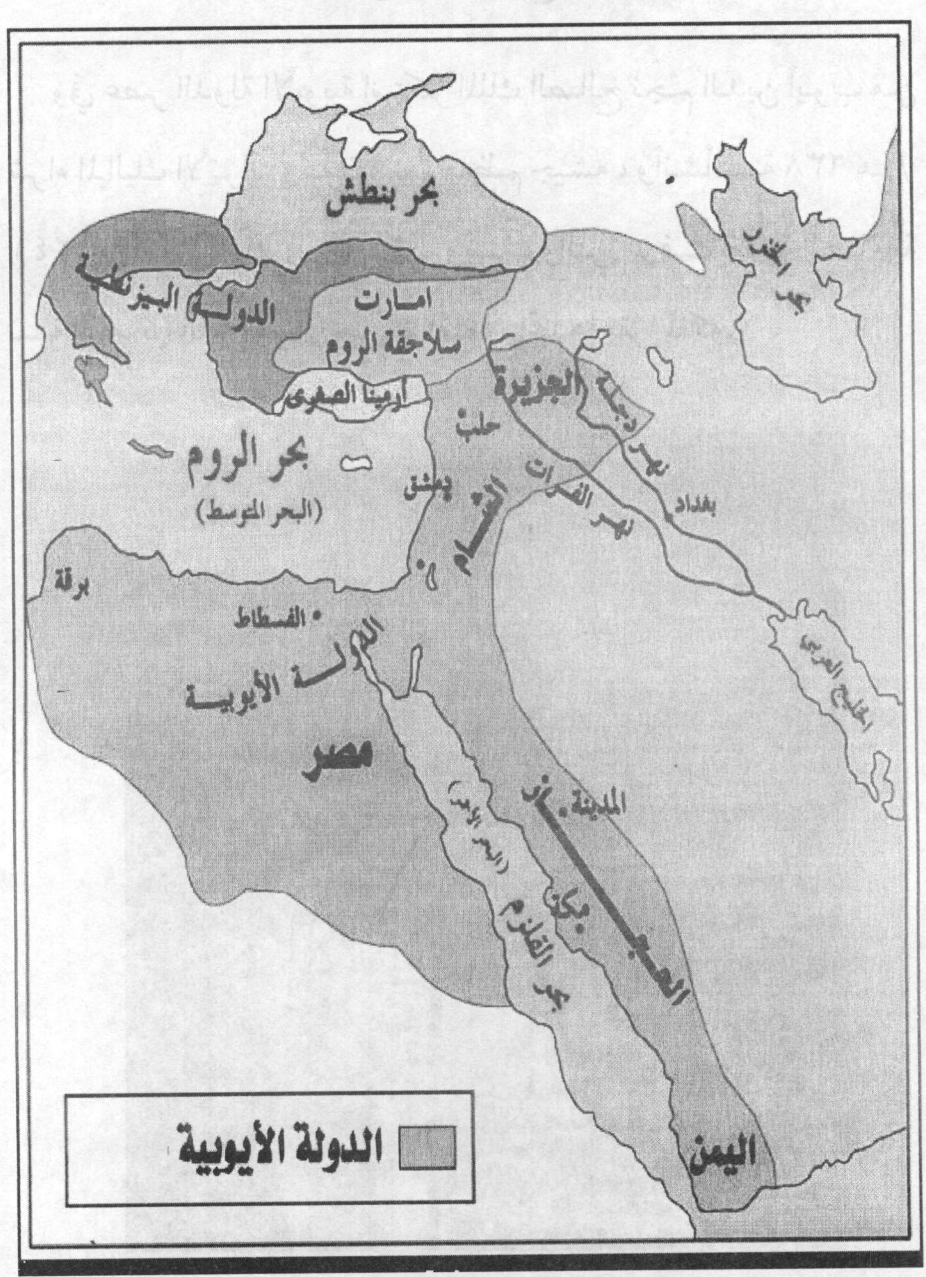


وبرز منهم : جوهر الصقلي أو الصقلبي، ودنيا الصقلبي ، وبرجوان الصقلبي، وأطلق الفاطميون على أحد شوارع القاهرة اسم الصقالبة.

وفي عصر الدولة الأيوبية استكثر الملك الصالح نجم الدين أيوب من شراء المماليك الأتراك وكوّن منهم معظم جيشه ، وأنشأ سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م قلعة المماليك في جزيرة الروضة ، والتي عرفت بقلعة الصالحية نسبة إليه ، كما انتقل هو إلى جزيرة القلعة واتخذها مقرًا لملكه.



خريطة الدولة الأيوبية



وقد عرف مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب أيضًا باسم المماليك البحرية ، وسموا كذلك إما لإقامتهم في جزيرة الروضة ببحر النيل، أو لأنهم كانوا يُجلبون عن طريق عرض البحر، وهكذا جرت العادة بنسبة المماليك إلى ملوكهم وأسيادهم.



ويعتبر عصر المماليك من أهم عصور مصر الإسلامية ، سواء من حيث التاريخ السياسي – حيث استطعوا أن يجعلوا مصر عاصمة إمبراطورية واسعة الأطراف ، وزعيمة العالم الإسلامي، ومقر الخلافة الإسلامية – أو من حيث الازدهار الحضاري ، الامر الذي جعل سلاطين المماليك يلقبون أنفسهم بألقاب تدل على أهمية دورهم في هذه الحقبة ، وكانوا يسجلون هذه الألقاب في مكاتباتهم وعلى آثارهم ، ومنها : «السلطان الأعظم ، الملك الأشرف ، السيد الأجل، العالم العادل، ناصر الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، فاتح الأقطار، مانح الممالك والأمصار، اسكندر الزمان، حامي الحرمين الشريفين...» ، وغير ذلك من هذه الألقاب.

وقد استمر حكم المماليك لمصر قرابة ثلاثة قرون ، وبالتحديد ٢٧٥ سنة هجرية «٦٤٨ - ٩٢٣» أو ما يقابل ٢٦٧ سنة ميلادية « ١٢٥٠- ١٥١٧م».

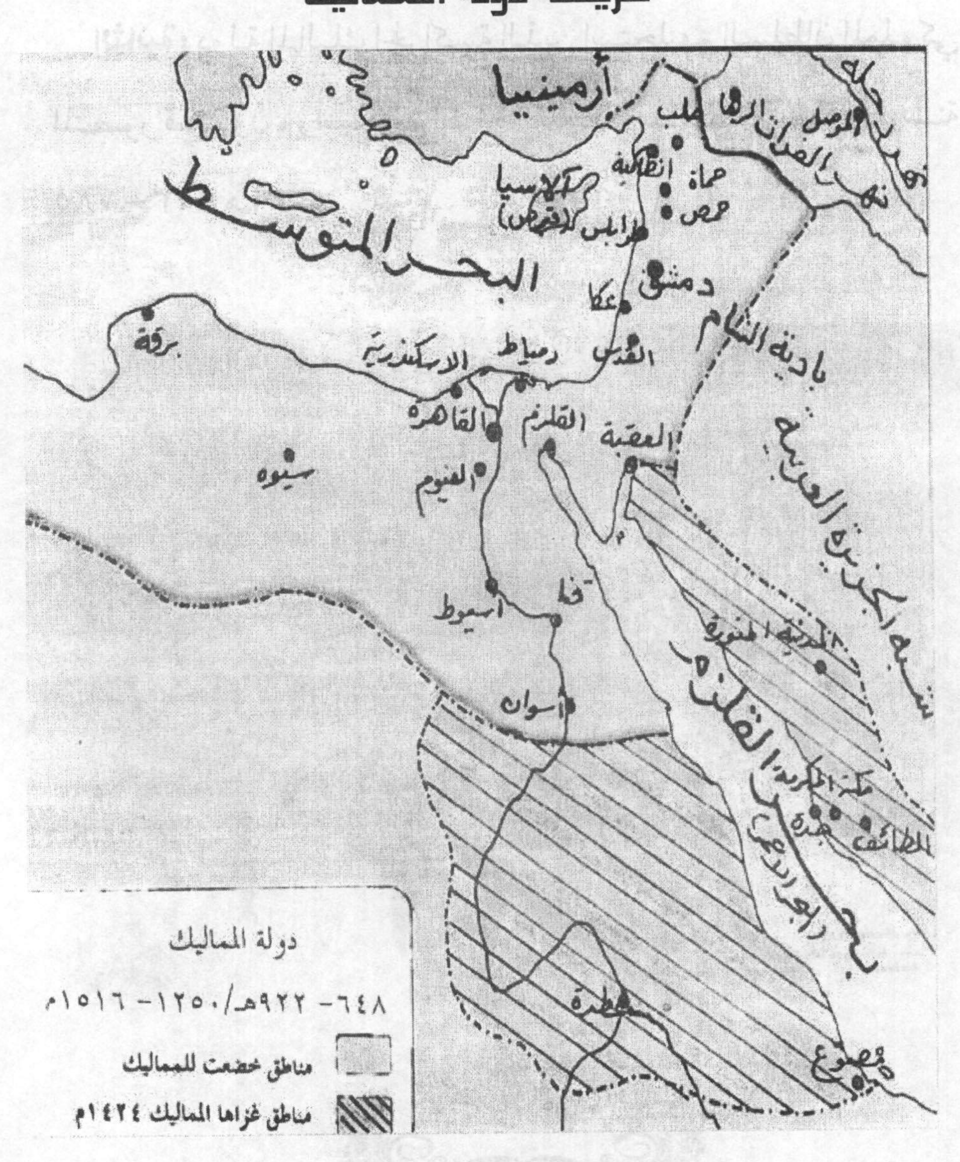
وقد قسمها المؤرخون إلى قسمين:

الأولى : دولة المماليك البحرية أو الصالحية من سنة ٦٤٨ – ٧٨٤ هـ.

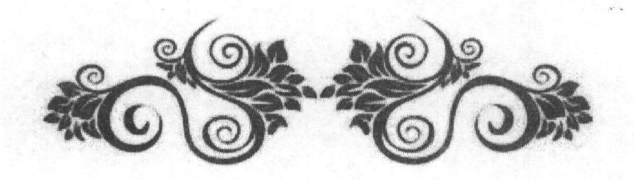
الثانية: دولة المماليك الجراكسة الذين استجلبهم السلطان المملوكي المنصور قلاوون ، وأسكنهم أبراج القلعة، وسماهم البرجية من سنة ٧٨٥ – ٩٢٣ هـ.

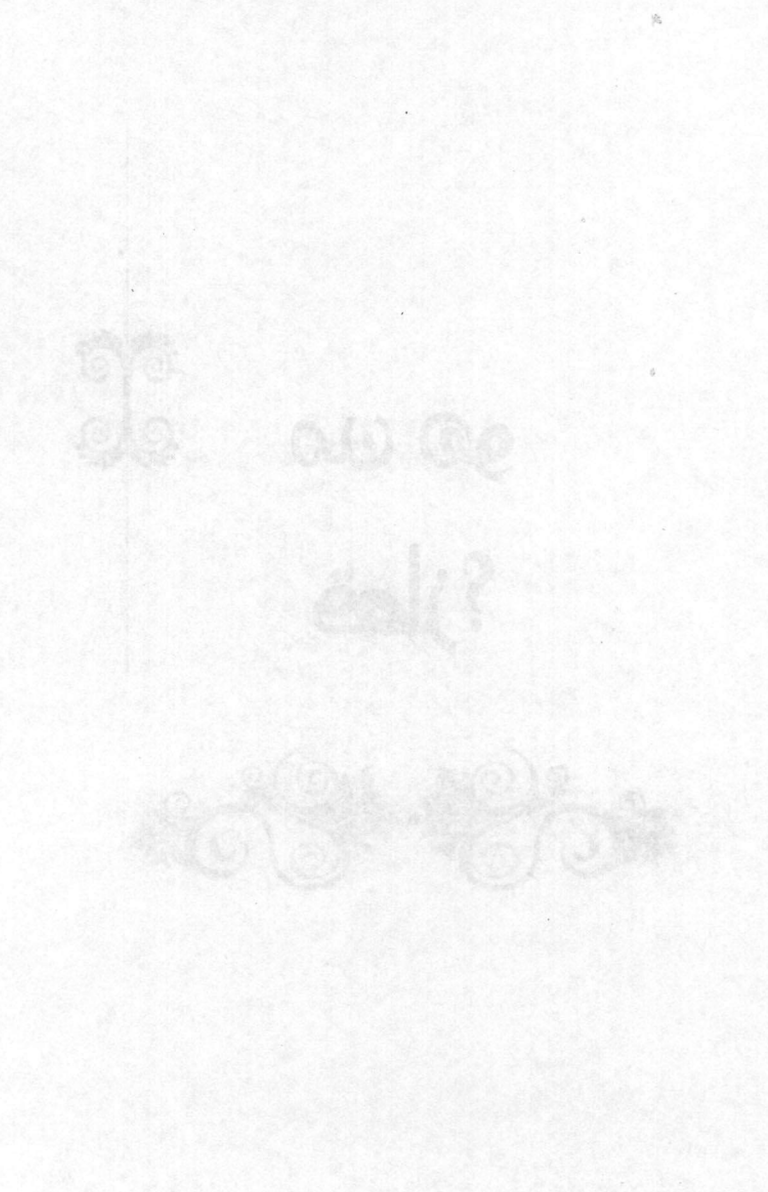


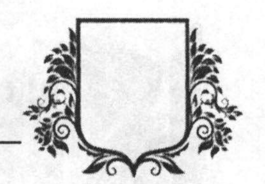
خريطة دولة المماليك



من هو
قطز؟





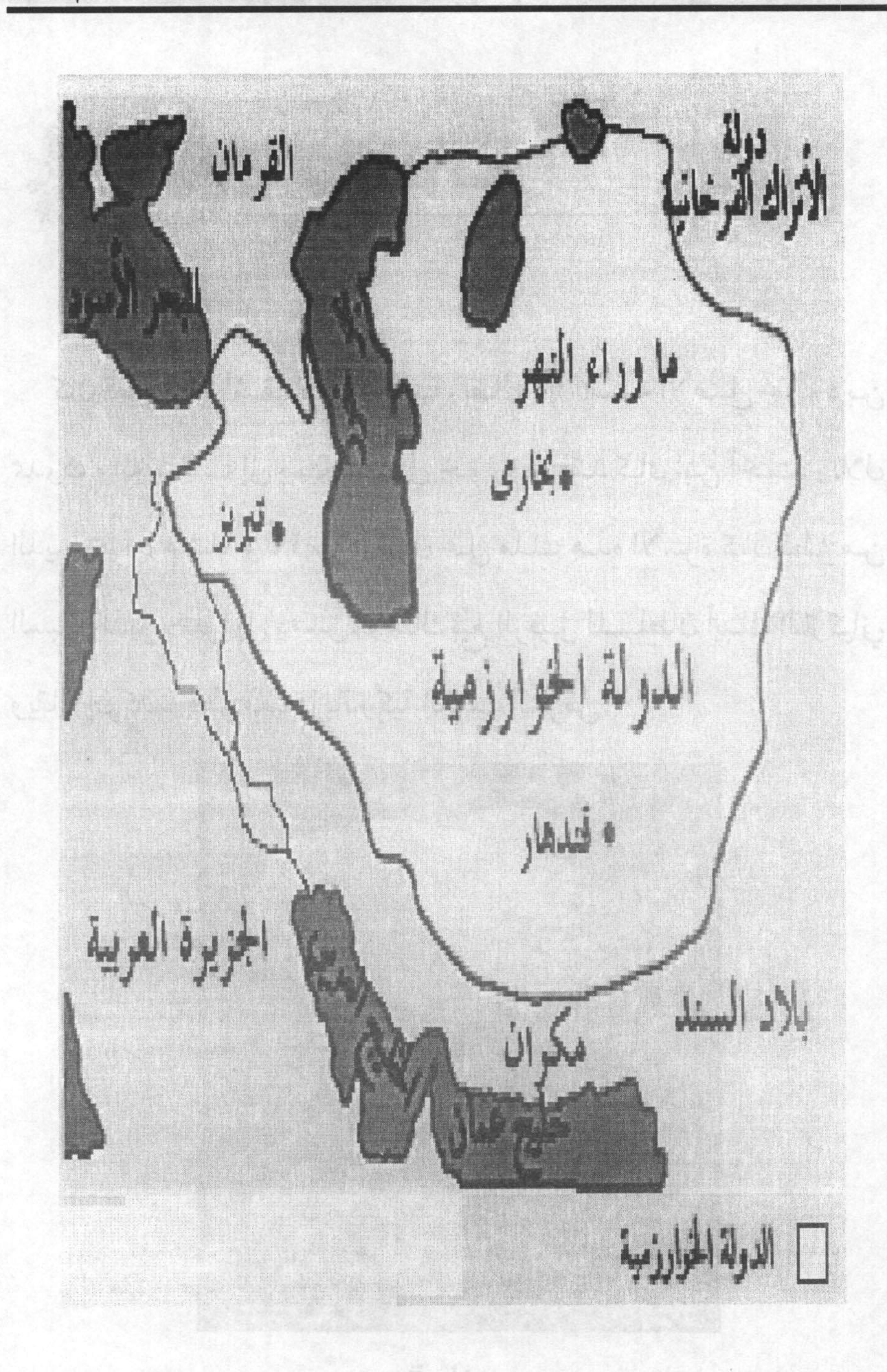


من هو قطز؟

كان قطز شابًا أشقر كبير اللحية، يقال : إن اسمه الأصلي محمود بن ممدود، وأنه ينتسب إلى بيت الملك في خوارزم، فقد كان ابن أخت جلال الدين خوارزم شاه ولمّا قضى المغول على ملك هذه الأسرة كان قطز من السبايا الذين حملوا إلى دمشق، وهناك بيْع الرقيق للسلطان أيبك التركماني ويقال إن كلمة قطز معناها بالتركية الكلب الشرس!



قطز


القرمان
دولة
الأتراك القرخانية
البحر الأسود
ما وراء النهر
بخارى
تبريز
الدولة الخوارزمية
قندهار
الجزيرة العربية
بلاد السند
مكران
خليج عمان
الدولة الخوارزمية

نشأة دولة المماليك

في مصر



نشأة دولة المماليك في مصر

انتهى عصر الدولة الأيوبية في مصر والشام بمقتل الملك تورانشاه - الذي تولى السلطنة بعد موت أبيه السلطان نجم الدين أيوب - في عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠ م ، وكان هذا التاريخ هو بداية قيام دولة المماليك ، بتولي شجرة الدر ملك مصر.

وشجرة الدر: هي الملكة عصمة الدين أم خليل، كانت تركية الجنس، وعلى جانب وافر من الجمال، بعث بها الخليفة العباسي المستعصم بالله من بغداد إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في القاهرة، فتزوجها ، وأنجب منها ابنًا اسمه خليل توفى وهو صغير.



وكانت شجرة الدر تتحلى بالدهاء وحسن السياسة، وقد وصفها ابن إياس في «بدائع الزهور»: «بأنها امرأة صعبة الخلق، شديدة الغيرة، قوية البأس، ذات شهامة زائدة، وحرمة وافرة، سكرانة من خمرة التيه العجب!».



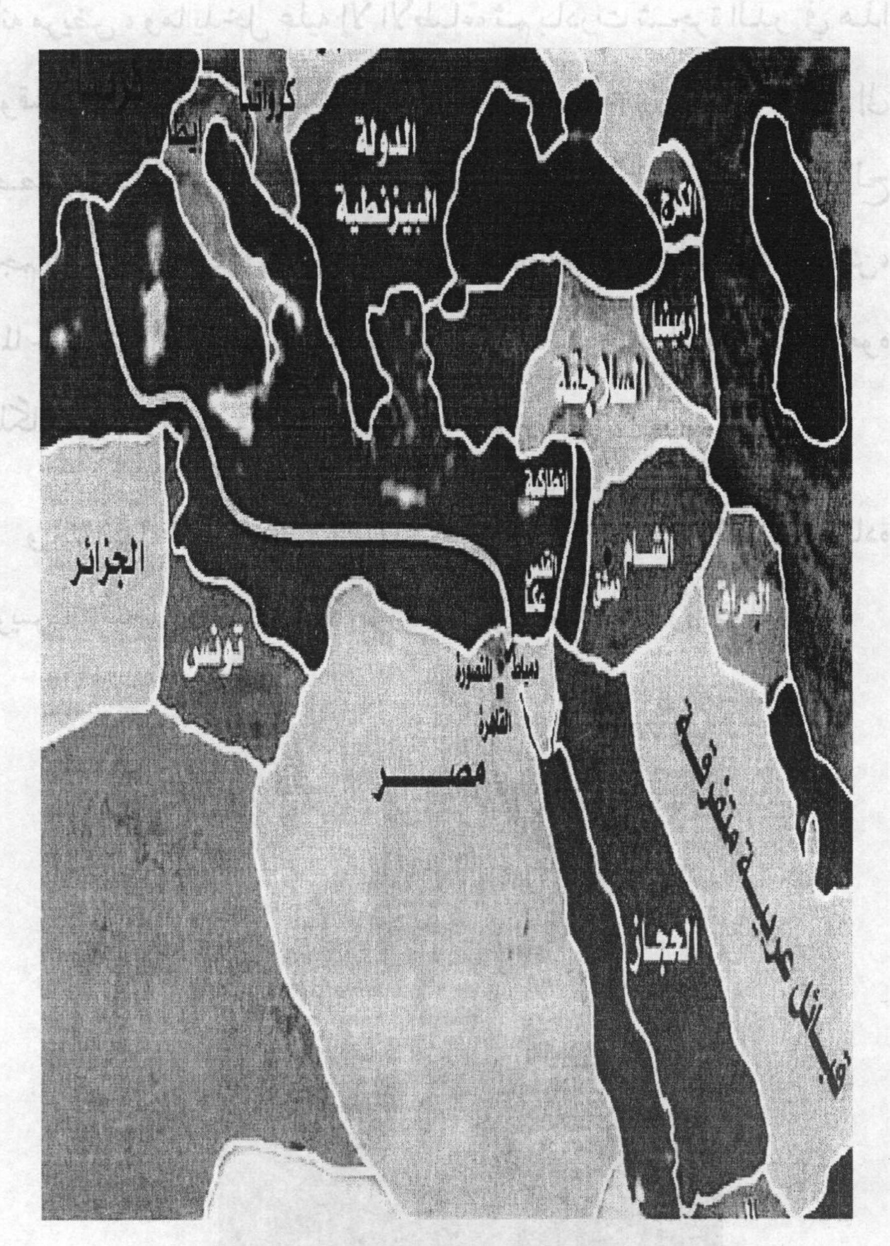
وقد تجلى دهاءها وحسن سياستها عندما توفى زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب أثناء محاربة المسلمين للصليبيين في مصر، فأوصت بكتمان خبر وفاته حتى لا يقع الاضطراب في صفوف الجيش، واستمرت هي تتابع الخطة الحربية، وتشرف على تنفيذها، وتراقب سير المعركة،، ولم يعرف أحد بخبر الوفاة سوى فخر الدين يوسف بن حموية قائد الجيش، وأشاعت شجرة الدر أن السلطان اشتد به المرض، وظلت الأطعمة والأشربة تدخل للسلطان في مواعيدها، واستمرت المناشير والأوامر الحكومية تصدر بتوقيع السلطان المتوفى، وإذا سأل أحد عن السلطان أجابته شجرة الدر

بأنه مريض ، وما يدخل عليه إلا الأطباء، ثم بادرت شجرة الدر في هذا الوقت بإرسال زعيم المماليك البحرية ويدعى أقطاي في مهمة سرية إلى حصن كيفا في شمال العراق لاستدعاء تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ليتولى السلطة، حيث كان نائبًا عن أبيه في ذلك الحصن، ولما حضر تورانشاه طلبت شجرة الدر من أكابر رجال الدولة أن يبايعوه ملكًا عليهم، وأن يتولى قيادة المعركة.

وبعد انتهاء المعركة بنصر المسلمين على الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع، انقلب السلطان تورانشاه على شجرة الدر زوجة أبيه.



شجرة الدر



خريطة : الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ٦٤٧هـ



لويس التاسع بعد القبض عليه

ولم يحفظ لها حسن صنيعها معه، وأنها صانت له ملك أبيه ، وأتتت به من كيفا لتولي السلطنة ، بل تنكّر لها، وأساء معاملتها ، واضطهد أنصارها، واتهمها بسرقة أموال أبيه، فاستنجدت شجرة الدر بزعماء المماليك البحرية، الذين حرصوا على التخلص منه بسبب غلظته معهم ، وسوء معاملته لهم، فقاموا بقتله في فارسكور – في الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨هـ ،

الموافق الثاني من مايو ١٢٥٠م – بعد أن عقد اتفاقية مع لويس التاسع يتعهد فيها لويس بدفع مبلغ كبير من المال مقابل إطلاق سراحه من الأسر، وعقب مقتل تورانشاه نادى كبار رجال الدولة بتولية شجرة الدر، وأن تكون سلطانة على مصر ، وهي أول ملكة مسلمة حكمت مصر في العصر الإسلامي ، وقد أخذت البيعة لها في العاشر من صفر سنة ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م.

وقد تلقبت شجرة الدر بعدة ألقاب منها : «الملكة عصمة الدين شجرة الدر» و «الستر العالي والدة الملك خليل» ، ودعى لها على المنابر ، ونقش اسمها على السكة ، بـ «المستعصمية[1] الصالحية ، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين».

وقد أخذت شجرة الدر تتقرب من أمراء المماليك ، وتمنحهم الرتب والإقطاعات ، كما خفضت الضرائب عن الأهالي لتستميل قلوبهم، وساست الرعية أحسن سياسة ، ومما يحمد لها أنها عملت على إخفاق حملة صليبية كبيرة على مصر ، عندما قامت بتصفية الموقف مع الصليبيين، وإنهاء المفاوضات التي بدأها معهم تورانشاه لترحيلهم عن البلاد المصرية ، وكان المفاوض المصري الأمير حسام الدين أبو علي الهذباني قد اتفق مع الملك لويس التاسع على تسليم دمياط وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار

(١) ويبدو أنها سجلت نسبتها إلى الخليفة العباسي المستعصم في السكة والخطبة ترضية للخليفة العباسي حتى يعترف بشرعية حكمها.

الأسرى مقابل فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار، يدفع نصفها قبل رحيله ، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا، وبموجب هذا الاتفاق تم دفع نصف الدية(١) .



صورة توضح دفع دية لويس التاسع



(١) كانت ملكة فرنسا مرجريت دي بروفانس قد رافقت زوجها لويس التاسع في تلك الحملة ، وبقيت بدمياط مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية ، وهي التي قامت بجمع نصف الدية ، وكانت وهي في دمياط أنجبت ولدًا وأسمته جان تريستان ، أي وليد الأحزان!!



ثم غادر لويس التاسع وأتباعه إلى عكا في صفر سنة ٦٤٧هـ/ ٧مايو ١٢٥٠م، وبذلك انتهت الحملة الصليبية التي اقترنت حوادثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك في مصر.

ولم يكن اعتلاء شجرة الدر عرش السلطنة على مصر يلقى قبولًا من بعض الرعية وعدد من الفقهاء وعلى رأسهم الإمام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله، وأمام هذه المعارضة لشجرة الدر اضطر أمراء المماليك المؤيدين لشجرة الدر أن يكتبوا إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله،

يطلبون منه تعضيد مركز شجرة الدر بسند شرعي يتمثل في إقرارها على السلطة ، غير أن الخليفة المستعصم أنكر ذلك ولم يتردد في إبداء معارضته لتوليتها السلطنة ، وكتب إلى أهل مصر يقول: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلًا» ، وبعد وصول خطاب الخليفة العباسي تحرج مركز شجرة الدر، مما جعل أمراء المماليك يفكرون في حيلة تجعل شجرة الدر بجوارهم دون اعتلائها عرش السلطنة ، فأسرعوا بتزويج شجرة الدر من أحدهم وهو الأمير عز الدين أيبك[1] التركماني، الذي لقب بالملك المعز، وتنازلت له شجرة الدر عن السلطنة بعد أن حكمت البلاد ثمانين يومًا.

وكما شاركت شجرة الدر زوجها الصالح نجم الدين أيوب في إدارة شؤون البلاد، فقد فعلت الشيء نفسه مع زوجها أيبك طيلة السنوات السبع التي ولى فيها السلطنة ، بل إنها كانت تستبد ببعض الأمور ، ولا تطلعه عليها ، وقيل أيضًا: إنها كانت تتحكم فيه إلى أنها ألزمته بطلاق امرأته الأولى ، أم ولده علي ، وكانت تتزعم حزبًا قويًا من الأمراء والمماليك وتطلب مشورتهم في الأمور العظام ، فإذا رأت رأيًا منهم استصوبته أخذت

---

(١) لفظ أيبك يتركب من كلمتين هما : آي ومعناها القمر، وبك ومعناها الأمير، فمعنى الاسم «الأمير القمر» ، وهو مملوك تركي، كان مملوكًا للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو أول مملوك تركي يتبوأ السلطنة.

به ، وإذا استصوبوا لها رأيًا أقروها عليه، وهؤلاء المماليك حاولوا الدفاع عنها عندما تم القبض عليها بعد أن قتلت زوجها أيبك ، وأودعت البرج الأحمر بالقلعة.

ولم يكن تولي أيبك لعرش السلطنة في مصر يلقى إجماعًا من زعماء المماليك، لأن أيبك لم يكن أكبر أمراء المماليك سنًا، أو أقدمهم خدمة ، أو أقواهم مكانًا ونفوذًا ، إذ كان يوجد فيهم هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن هؤلاء المعترضين على أيبك قد بايعوه في أول الأمر بالرغم من نقص صفاته عنهم، حتى يسهل عليهم عزله متى شاءوا .

ثم إن هذه المعارضة الداخلية لأيبك قد تزامنت مع معارضة خارجية شديدة أتت من الشام، حيث انتفض الأمراء الأيوبيون ، ونادوا بخلع أيبك، وعودة الحكم للأيوبيين، ولما كان أيبك يتحلى بالدهاء وحسن السياسية فقد استطاع احتواء هذه المعارضة الخارجية، فجمع أصحابه من المماليك ، وتشاور معهم ثم استقر رأيهم على أن يشركوا في الحكم مع أيبك طفلًا من سلالة الأيوبيين ، وهو الأشرف موسى حفيد الملك الكامل محمد، وكان في نحو السادسة من عمره ، على أن تكون جميع الأمور في يد المعز أيبك، ولكن هذا القرار لم يسكت غضب الأيوبيين في الشام، فاضطر

المعز أيبك إلى أن يعلن في جميع أنحاء البلاد أن مصر تابعة للخيفة العباسي المستعصم بالله، وأن الملك المعز أيبك نائبه بها، ورغم ذلك صمم الملك الناصر يوسف صاحب حلب على الخروج من الشام بجيوشه قاصدًا الديار المصرية بهدف الاستيلاء عليها وإعادتها إلى حكم الأيوبيين.



الملك الناصر يوسف

وحتى يضمن الملك الناصر يوسف النجاح لحملته على مصر فقد رأى أن يضم إلى جانبه الملك لويس التاسع المقيم في عكا، وعرض عليه مقابل ذلك تسليمه بيت المقدس الذي كان تحت امرأة الأيوبيين في ذلك الوقت، وعلم أيبك بأنباء هذه المفاوضات ، فأرسل إلى الملك لويس تهديدًا بقتل أسرى الصليبيين المقيمين بمصر إن قام بأي عمل عدائي ضده ، وفي الوقت نفسه أبدى له استعداده لتعديل معاهدة دمياط، والتنازل له عن نصف

الدية المقررة ، إن تحالف معه ضد الناصر يوسف ، غير أن الملك لويس التاسع فضل أن يقف بين الفريقين موقف الحياد ، وأن يستغل نزاعهما لصالحه.

ولـمّا يئس الملك الناصر يوسف من مساندة لويس التاسع له ، زحف بجيوشه نحو مصر ، وسارع أيبك للقائه ، ولكنه خشى في الوقت نفسه أن يقوم الصليبيون بهجوم مفاجئ على مصر ، فأمر بهدم ثغر دمياط، وهو طريقهم في عبورهم إلى سائر البلاد.

ثم التقى المماليك بالأيوبيين في معركة عامة عند بلدة العباسة بين مدينتي بلبيس والصالحية في ٣ فبراير سنة ١٢٥١م ، انتصر فيها الملك الناصر أول الأمر، ولكن فرقة من مماليكه خذلوه، وانضموا إلى جيش أيبك، مما أدى ذلك إلى انتصار أيبك على الناصر يوسف، ولم يكتف الملك أيبك بهزيمة الملك الناصر في هذه المعركة، بل قرر أن يواصل زحفه إلى الشام حتى يقضي على مراكز المقاومة الأيوبية، ولكي يضمن النجاح لمشروعه ، عرض على الملك لويس التاسع أن يكون إلى جانبه ، ووعده ببيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف، ووافق لويس على هذا العرض وفي أوائل مايو سنة ١٢٥٢ قام أيبك ولويس بوضع خطة بينهما للزحف على الشام، ويقوم لويس بالاستيلاء على يافا، ويقوم أيبك بالاستيلاء على غزة ، ومن هناك يتم الاتصال بين الجيشين للقيام بهجوم عام مشترك على ولايات

الأيوبيين، وبالفعل استطاع الملك لويس الاستيلاء على يافا دون مقاومة، بينما تقدم المماليك بقيادة أقطاي نحو غزة، غير أن الملك الناصر يوسف، الذي علم بأخبار هذا التحالف سبقهم إلى احتلالها بقوة حربية كبيرة، مما أدى ذلك إلى انقطاع الاتصال بين المماليك وحلفائهم الصليبيين.



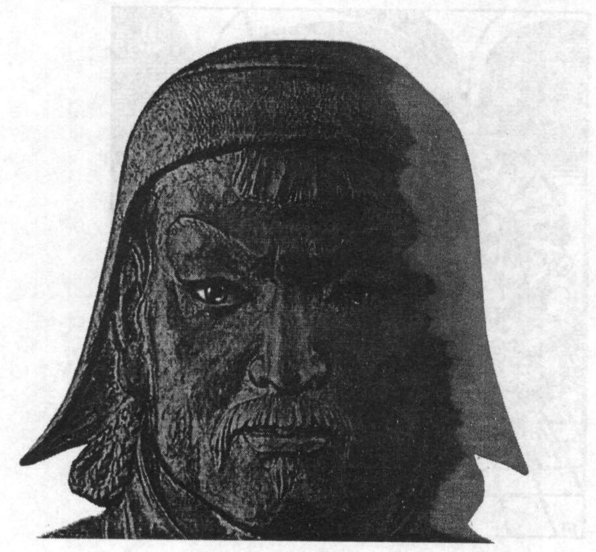
واستمرت جيوش المماليك في الصالحية، وجيوش الأيوبيين في غزة، كل منهما تتحفز بالأخرى، إلى أن أنقذ الموقف أخيرًا الخليفة العباسي المستعصم عندما توسط لدى الفريقين، وتمكن من عقد صلح بينهما في أبريل ١٢٥٣م (٦٥١هـ) على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين، بما في ذلك غزة وبيت المقدس ، بينما تظل البلاد الشامية في يد أصحابها من أبناء البيت الأيوبي.

وهكذا فشل لويس التاسع في تحقيق آماله باعتلاء بيت المقدس، ولم يستطع بعد ذلك البقاء في الشام، فرجع إلى بلاده سنة ١٢٥٤م.



ولم يكن هدف الخليفة العباسي من الصلح بين الأيوبيين والمماليك إيقاف التغلغل الصليبي في شؤون الشرق العربي فحسب، بل كان يهدف أيضًا إلى توحيد الجهود لتكوين جبهة إسلامية أمام خطر جديد أشد من الخطر الصليبي، وهو الخطر المغولي الذي كانت جحافله قد اجتاحت الحدود الإسلامية الشرقية بقيادة جنكيز خان.





جنكيز خان

ولم يكن الصراع بين المماليك والأيوبيين هو العقبة الوحيدة التي واجهت دولة المماليك في بداية نشأتها ، بل كان هناك عقبات أخرى، وكانت العقبة الثانية التي اعترضت السلطان أيبك هي الثورة الشعبية التي قامت بها القبائل العربية التي استوطنت مصر بعد الفتح الإسلامي، ويرجع الدافع لهذه الثورة إلى سببين:

الأول: أن هذه القبائل كانت تشتغل بالزراعة، وكان أمراء المماليك يتعسفون مع الأعراب في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها ، فأدت هذه السياسة إلى سخط الأعراب على المماليك، وأما السبب الثاني فهو أن الأعراب كانوا يهدفون لإلغاء حكم المماليك ؛ لأنهم من الجنس التركي ، وليسوا أحرارًا ، وإعادة الحكم إلى العرب الأحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد.

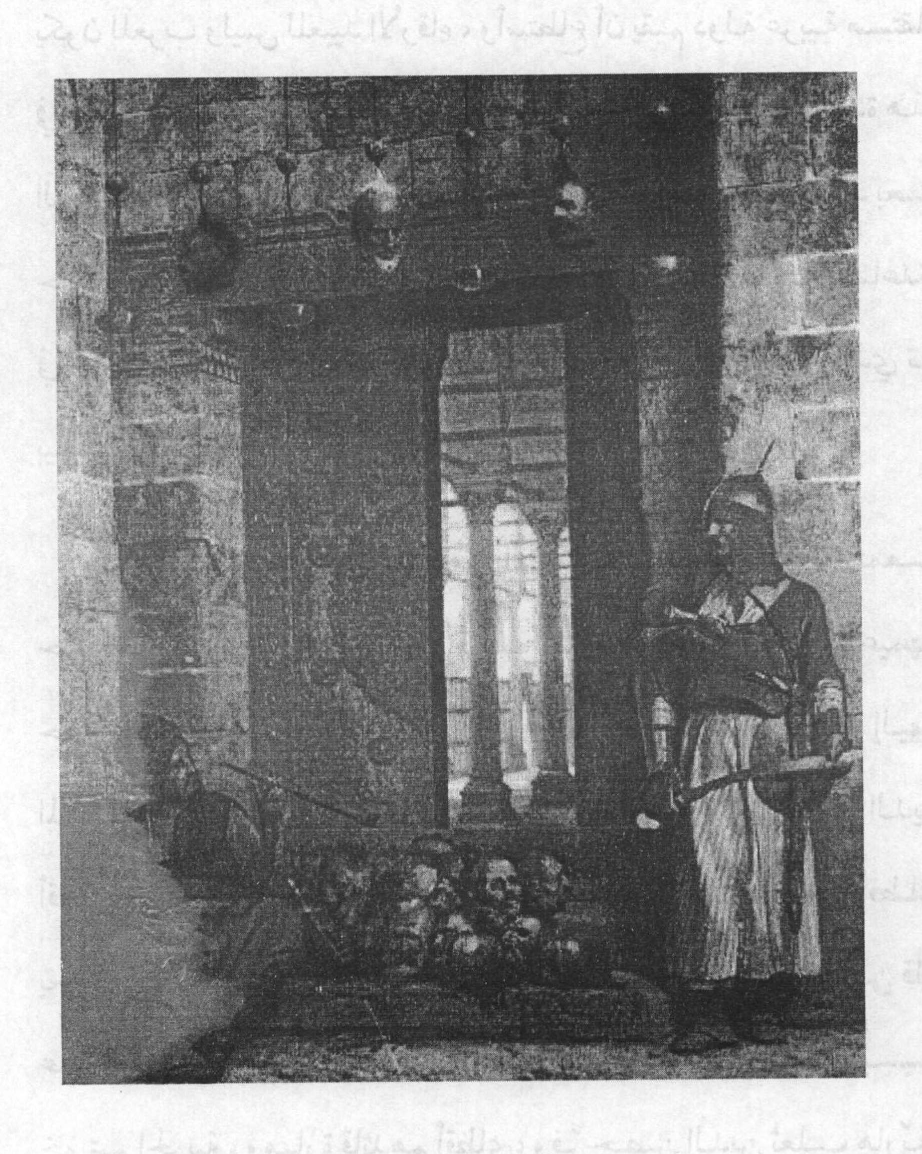


تعذيب المماليك لأحد الأشخاص

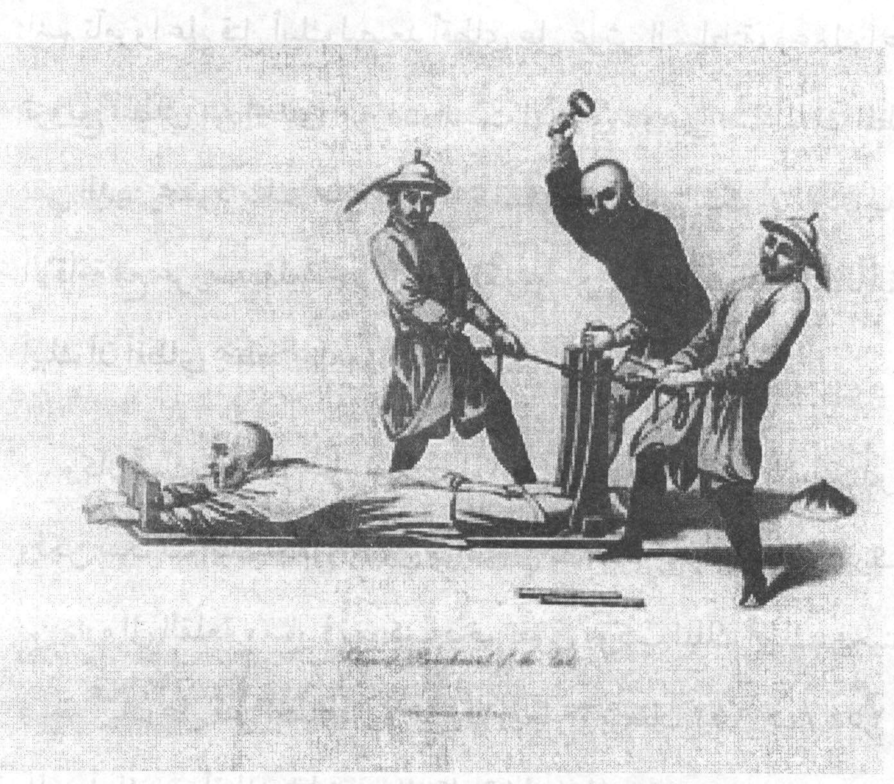
وقد تزعم ثورة القبائل العربية أحد الأشراف العلويين، وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة ، وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء ، وأستطاع أن يقيم دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى، وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري، وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذروة الشريف نسبة إليه، وقد بعث حصن الدين برسالة إلى الملك الناصر يوسف الأيوبي يطلب منه مساعدته في محاربة أيبك، ولكن الملك الناصر لم يستجب له احترامًا للصلح الذي تم بينه وبين أيبك.

وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيل والمال، فاجتمعت حشودهم بالقرب من ديروط، وأقسموا يمين الطاعة والولاء لزعيمهم حصن الدين ثعلب، وبلغ عدتهم اثنى عشر ألف فارس، فأرسل إليهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار، والأمير فارس الدين أقطاي المستعرب في خمسة آلاف فارس من خيرة المماليك، وتوجه أقطاي بجيشه إلى الشرقية حيث كانت أكبر مظاهر العصيان، وعلى الرغم من قلة عدد المماليك بالقياس إلى العرب،إلا أن المماليك تغلبوا على العرب بسبب خبرتهم الحربية ، ومهارة قائدهم أقطاي، وفرَّ حصن الدين ثعلب هاربًا ، ثم طلب الأمان من الملك أيبك فآمنه، واستدعاه إليه، وسرعان ما قبض

عليه وعلى سائر أصحابه، وكانت عدتهم نحو ألفي وستمائة رجل، فأمر الملك أيبك بشنقهم جميعًا.



وقام بإرسال حصن الدين ثعلب إلى الإسكندرية حيث حبس بها ، وفي الوقت نفسه سارع الملك أيبك إلى إخماد ثورات العرب في أنحاء البلاد، وفرض عليهم المزيد من الضرائب والمكوس، وعاملهم بالعسف والقهر، فانتهت ثوراتهم طوال العصر المملوكي.



طرق التعذيب في العصر المملوكي



وأما العقبة الثالثة التي واجهت دولة المماليك في بداياتها، فهي أن فارس الدين أقطاي قد استفحل نفوذه لا سيما بعد نجاحه في القضاء على ثورة العرب، وقد انضمت مجموعة من المماليك إلى أقطاي، فأصبح ملجأ لهم يسألونه في حوائجهم ، ويكون هو المتحدث باسمهم مع الملك أيبك، بل كانوا يدفعون أقطاي نحو السلطنة ، ولقبوه فيما بينهم بالملك الجواد ، بل إنهم تآمروا على قتل أيبك ليصعد أقطاي على عرش السلطنة، وعملوا على تزويج أقطاي من إحدى أميرات البيت الأيوبي ، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماة، وعندما طلب أقطاي من أيبك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة جبل المقطم لكونها من بنات الملوك، حينئذ أيقن أيبك أن أقطاي يخطط لخلعه.

وكان أيبك قد عمل على استرضاء أقطاي ، فأقطعه ثغر الإسكندرية، ولكن سكوت أيبك جعل أقطاي يتمادى في تصرفاته بحيث كان إذا ركب من داره إلى القلعة ، سار في موكب فخم يفوق موكب الملك أيبك، فحينئذ صمم أيبك على قتل أقطاي، وفي يوم الأربعاء ٣ شعبان ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤م طلب أيبك من أقطاي الحضور إلى قلعة الجبل للتشاور ، وبمجرد دخول أقطاي القلعة أغلقت الأبواب، وأمر أيبك بالقبض عليه وقتله.



وانتشر خبر مقتل أقطاي في القاهرة، فسارع أصحابه في نحو السبعمائة فارس، ووقفوا تحت القلعة ، وفي ظنهم أنه لم يقتل، وإنما قبض عليه ، فأمر أيبك بإلقاء رأس أقطاي إليهم، فَسُقط في أيديهم ، وخشوا أن تدور الدائرة عليهم، فهرب من استطاع منهم الهرب، فمنهم من ذهب إلى الملك المغيث صاحب الكرك، ومنهم من سار إلى الملك الناصر صاحب دمشق، ومنهم من ذهب إلى الملك علاء الدين ملك سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وأما من بقى منهم بالقاهرة ، فقد تتبعهم الملك أيبك وقبض عليهم، وقتل بعضهم وحبس باقيهم، وصادر أملاكهم وأموالهم.



ونودي في القاهرة ومصر بتهديد من أخفى أحدًا منهم ، وأما بالنسبة للفارين منهم إلى دمشق والكرك فقد خاف أيبك غائلتهم، فكتب إلى الملك الناصر يحذره منهم ، فانتهز الملك الناصر هذه الفرصة، وطلب من أيبك أن يعيد إليه المدن التي كان قد انتزعها منه في فلسطين، وهي القدس وساحل فلسطين، فاستجاب لطلبه ورد له هذه المدن.

ولما استتب الأمر لأيبك في مصر أرسل إلى الخليفة المستعصم بالله العباسي سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م يطلب منه تشريفه بالخلع والتقليد بالسلطنة أسوة بمن تقدمه من سلاطين بني أيوب، وظن أيبك أنه بهذا التشريف قد ارتفع إلى مرتبة السلاطين العظام ، فأراد أن يصاهر الملوك، فأرسل سنة ١٢٥٦م إلى الملك بدر الدين لؤلؤ الأتابكي [(١)] صاحب الموصل يخطب ابنته ، وكانت هذه الزيجة هي بداية النهاية للسلطان عز الدين أيبك؛ لأن شجرة الدر فهمت أن زواج أيبك من ابنة بدر الدين معناه هجرها والتخلص منها ، لا سيما بعد أن غادر أيبك القلعة وأقام في مناظر اللوق، فقامت شجرة الدر بالتدبير لقتل أيبك وأحكمت خطتها ، فأرسلت إلى أيبك رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور إليها بالقلعة ، فاستجاب أيبك لدعوتها ، وصعد إلى القصر السلطاني بالقلعة حيث أعدت له شجرة

(١) هو لؤلؤ بن عبد الله النوري بدر الدين الأرمني الأتابكي ، كان في الأصل مملوكًا لنور الدين أرسلان شاه زنكي ، وقد استقل بدر الدين بالملك سنة ٦٣١ هـ بعد موت نور الدين أرسلان وأولاده من بعده.

الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله ، وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمرتهم به شجرة الدر وقتلوا أيبك في الحمام في ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / أبريل سنة ١٢٥٧م.

وفي اليوم التالي ذاع الخبر في المدينة بمقتل أيبك، فأسرع المماليك المعزية[١] إلى القلعة وقبضوا على الخدم والحريم ، وقاموا بتعذيبهم حتى اعترفوا بحقيقة ما حدث، وعندئذ حاول المماليك المعزية قتل شجرة الدر، ولكن المماليك الصالحية[٢] حالوا بينهم وبينها ، وسعوا إلى إنقاذها باعتقالها في القلعة ، فأحاط المماليك المعزية بالقلعة وأخذوا يتحينون الفرصة لقتلها،ثم ازداد العداء لشجرة الدر بسبب حقد امرأة أيبك الأولى أم ولده علي عليها ، لأنها هي التي أرغمت أيبك على تطليقها ، ومنعته من زياراتها هي وابنها علي ، فأخذت هي وابنها يلحان في تحريض المماليك المعزية على قتلها إلى أن ضعفت مقاومة المماليك الصالحية في النهاية ، وحملت شجرة الدر إلى أم علي، فأمرت جواريها بقتلها، فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت ، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أيامًا ، ثم دفنت بعد أيام.

---

(١) نسبة إلى الملك المعز أيبك.

(٢) نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهؤلاء المماليك كان ولائهم لشجرة الدر.

وقد انقسم المماليك بعد مقتل أيبك إلى حزبين: حزب المعزية الذين نادوا بتنصيب نور الدين علي بن أيبك سلطانًا عليهم خلفًا لأبيه، رغم أنه كان صبيًا لا يتجاوز خمسة عشر عامًا ، وأما الحزب الثاني فهو حزب المماليك الصالحية ، وكانوا يريدون تنصيب واحد من كبار أمرائهم، وهو علم الدين سنجر أتابك[1] العسكر، ولكن الغلبة كانت للمماليك المعزية، فقاموا بتنصيب نور الدين علي بن أيبك سلطانًا عليهم في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م ، ولقبوه بالملك المنصور ، ثم أقام أمراء المماليك المعزية الأمير سيف الدين قطز المعزي نائبًا للسلطنة، وأصبح مدبر دولة المنصور.

ثم سرعان ما قبض المماليك المعزية على علم الدين سنجر، وسجنوه في القلعة، ثم قاموا بمطاردة المماليك الذين أظهروا اعتراضهم على تولية علي بن أيبك ، فهرب بعضهم على ملوك الأيوبيين بالشام، ولا سيما الملك المغيث عمر صاحب الكرك ، حيث أخذوا يحرضونه على غزو مصر ملك آبائه وأجداده حتى استجاب لدعوتهم ، وسعى بمعونتهم في الاستيلاء على مصر فخرج بعد مرور ستة أشهر من ارتقاء المنصور نور الدين على عرش السلطنة ، واتجه نحو مصر ، فتصدى له سيف الدين قطز بقواته في الصالحية ، وانتصر عليهم، فعاد الملك المغيث مهزومًا إلى الكرك، ثم حاول الملك المغيث الاستيلاء على مصر مرة ثانية ، فخرج إليه قطز مرة أخرى لمواجهته وهزمه للمرة الثانية.

---

(١) الأتابك : هو القائد العام لجيش المماليك.

مواجهة قطز للخطر المغولي في مصر



مواجهة قطز للخطر المغولي على مصر

من هم المغول «التتار» ؟

يرجع أصل المغول «ويعني اللفظ : الشجعان» إلى المجموعات التركية الكبيرة التي سكنت أواسط آسيا في جهات متفرقة، وعرفت بأسماء مختلفة ، والمغول اسم لقبيلة ترية صغيرة ينتمي إليها جنكيز خان[1] مؤسس الإمبراطورية التي عرفها العالم في وقت قصير للغاية.

وفي عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ قام هولاكو خان المغولي بالاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وأسرف في سفك الدماء وإشاعة الهلع والرعب والتخريب والتدمير والسلب والنهب بصورة غير مسبوقة في التاريخ كله!!



(١) جنكيز خان – يعني أقوى الحكام – وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه، أما اسمه الحقيقي الذي عرف به في صباه فهو تيموجين ، ومعناه في اللغة الصينية الصلب الخالص، وقد تمكن تيموجين بعد حروب ومنازعات مع أبناء جنسه أن يصل إلى غايته وهي زعامة المغول سنة ٦٠١ هـ وأن يجعل منهم قوة كبيرة ، وبهذه القوة استطاع أن يكتسح البلاد شرقًا وغربًا حتى ترك لأولاده إمبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الأسود ، وكانت وفاته سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧م.



هولاكو

قال ابن كثير – رحمه الله – : «استهلت هذه السنة – أي سنة ٦٥٦هـ – وجنود التتار قد نازلت بغداد، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفًا على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾(نوح: ٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾(الرعد: ١١).

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب .

وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها، وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السّنة، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجهًا إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عمَّا يريده من قصد بلادهم، فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره، وقالوا: إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئًا من الهدايا فاحتقرها هولاكو خان، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه ولا بالا به حتى أزف قدومه ، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم في غاية الضعف، وبقية الجيش كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية - أي سنة ٦٥٥هـ - كان بين أهل السنة والرافضة حرب شديدة نهبت فيها

الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات[1]، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم، ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد، وفي صحبته خوجة نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة

(١) ألا فليتنبه الذين يحسنون الظن بالرافضة، وليعلموا أن الشيعة لا عهد ولا أمان لهم، وأنهم أشد الناس خطرًا على أهل السنة، وانظر كتابي «حقيقة الشيعة، وهل يمكن تقاربهم مع أهل السنة؟» لتقف على مدى عدائهم لأهل السنة، وكيف يخططون للقضاء عليهم!!

لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسَّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله.

ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيرًا لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هوّن عليه الوزير ذلك فقتلوه، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون.

وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي

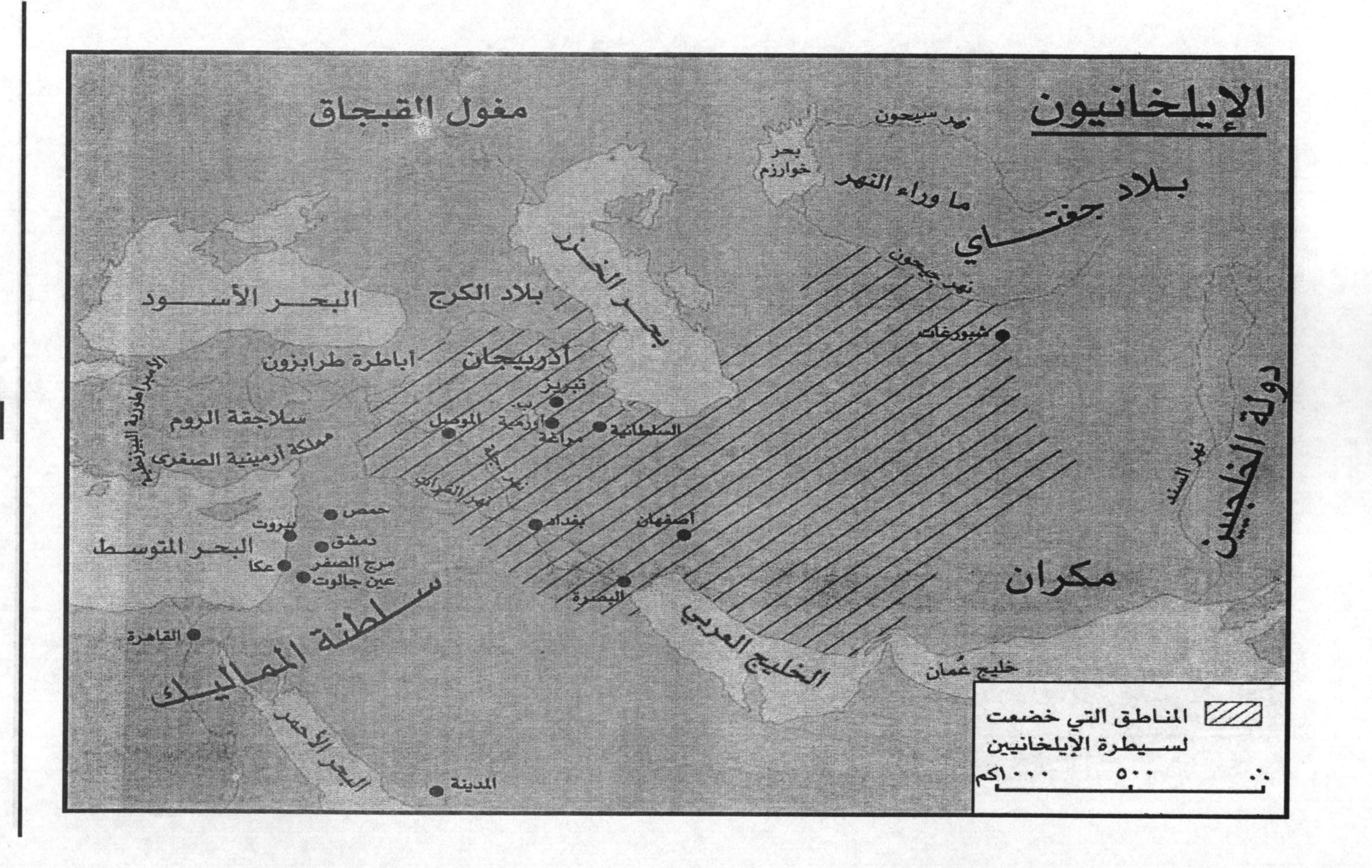
الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا بذلوا عليه أموالًا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف.

ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية!!!، وأن يظهر البدعة الرافضية!!!، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قُتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف – أي مليون و ٨٠٠ ألف – وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس – أي ٢ مليون – فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم [١].

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٨٦-١٨٨) بتحقيقي، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة باختصار يسير.

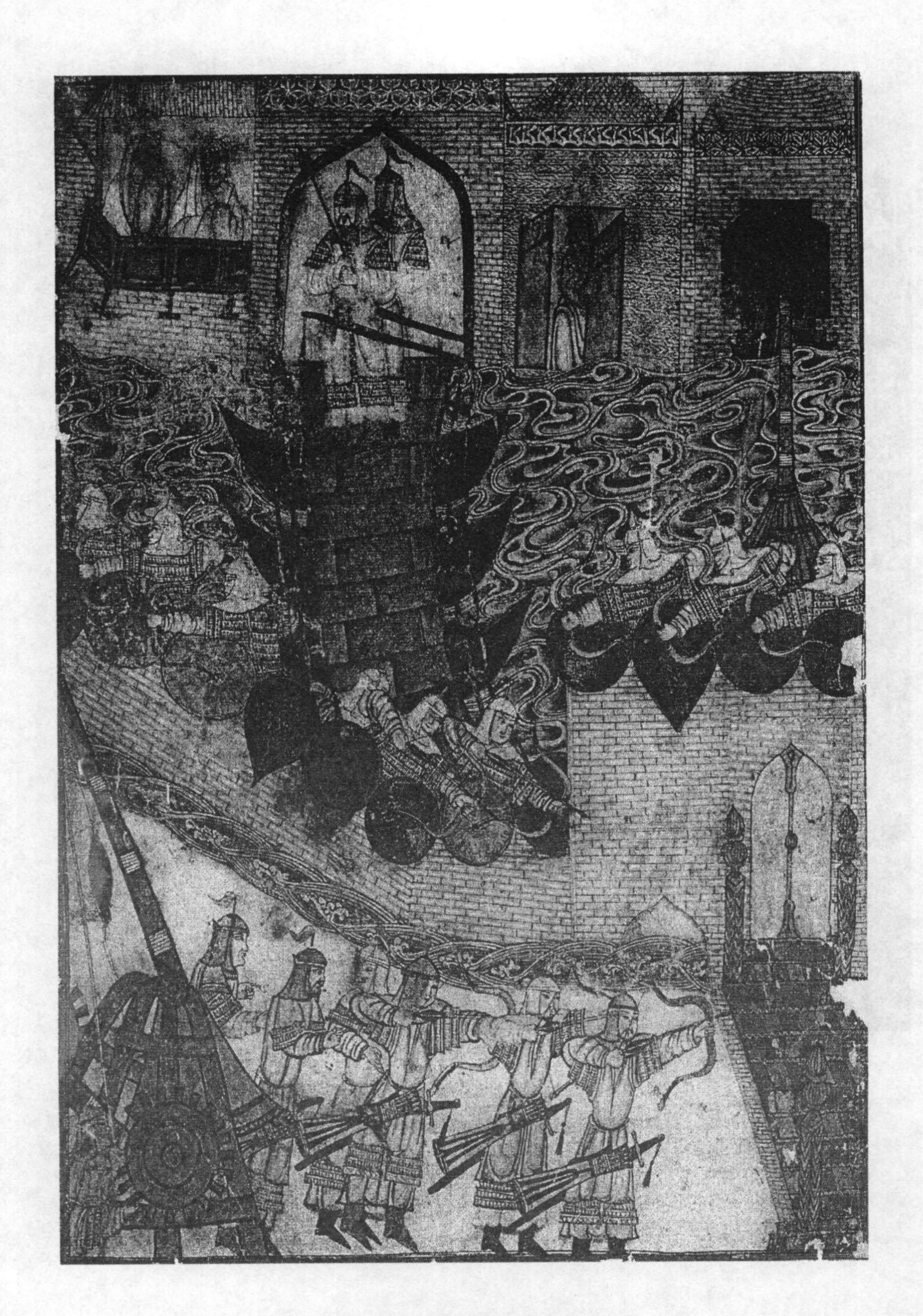

الإيلخانيون
مغول القبجاق
نهر سيحون
بحر خوارزم
ما وراء النهر
بلاد جغتاي
نهر جيحون
شبورغان
دولة الخلجيين
نهر السند
مكران
خليج عُمان
الخليج العربي
بحر الخزر
بلاد الكرج
البحر الأسود
أذربيجان
أباطرة طرابزون
الإمبراطورية البيزنطية
سلاجقة الروم
مملكة أرمينية الصغرى
تبريز
أورمية
مراغة
الموصل
السلطانية
نهر الفرات
حمص
بيروت
دمشق
البحر المتوسط
مرج الصفر
عكا
عين جالوت
بغداد
أصفهان
البصرة
القاهرة
سلطنة المماليك
البحر الأحمر
المدينة
المناطق التي خضعت لسيطرة الإيلخانيين
٥٠٠
١٠٠٠ كم



خريطة جيوش التتار المشتركة في حصار بغداد



مذابح التتار في كل بلد دخلوها



دخول التتار بغداد

ونتج عن سقوط بغداد في أيدي التتار آثار ونتائج عديدة في الحياة الإسلامية ، فالوحدة السياسية للمسلمين أصبحت من الأمور التي يصعب تحقيقها ، بالإضافة إلى أن الثقافة الإسلامية قد منيت على أيدي التتار بخسارة كبيرة حين أتلف المغول آلافًا من الكتب القيمة والمخطوطات النادرة ، وقتلوا كثيرًا من العلماء والأدباء وشتتوا شمل من بقى منهم في مختلف البقاع الإسلامية.



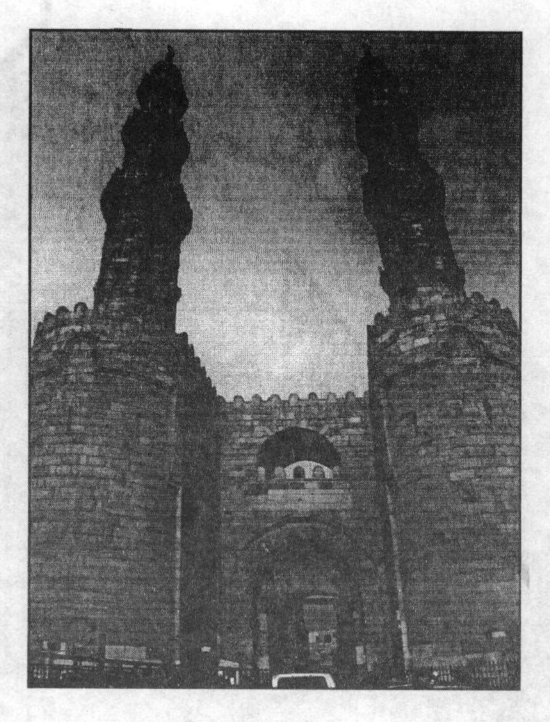
وفي هذه الآونة استشعر أهل الشام ومصر أن خطر التتار قد اقترب منهم ، وأن هذا الموقف يتطلب الاتحاد بين الشام ومصر لمواجهة تلك الأزمة التي لم يشهد المسلمون مثلها حتى ذلك الوقت ، ولكن ملوك الأيوبيين بالشام رأوا أن ينتهجوا في مبدأ الأمر سياسة المداهنة والملاينة للمغول ، لعل ذلك ينقذهم من طغيانهم، فأرسل الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق بابنه إلى هولاكو يخطب وده ويسأله أن يساعده على أخذ مصر من أيدي المماليك، لكن هولاكو ردّ عليه ردًا جافًا يأمره فيه بالخضوع والتبعية له دون قيد أو شرط، ثم بدأ هولاكو يتجه بجيشه إلى شمال الشام، فاستولى على حلب وقلعتها ، ومنها إلى دمشق ، فاستولى عليها، فاضطر الملك الناصر يوسف إلى الانسحاب إلى غزة ، وفي غزة استمر جنده ينفضّون من حوله، وانضم بعضهم إلى المماليك ، فاضطر إلى أن يتجه إلى قطيا[1]، وهي قرية على حدود مصر، ولكن المغول بعثوا ببعض رجالهم فأسروه ، وفي ذلك الوقت كان نور الدين علي بن أيبك سلطان مصر يفتقد القدرة على إدارة شؤون البلاد نظرًا لصغر سنه ، وانشغاله باللهو واللعب بالحمام معظم وقته، وأدى هذا الوضع إلى تركيز السلطة في يد نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز ، وعندما بدأ هولاكو بالسير بجيشه نحو مصر للاستيلاء عليها ، وبدأت جحافله تتمركز عند نهر الفرات ، أدرك سيف الدين قطز أن أهل مصر سيواجهون خطرًا داهمًا ،

---

(١) تقع هذه القرية بين مصر والشام قرب الفرما ، وقد اندثرت الآن ولم يبق إلا أطلالها في الطريق بين القنطرة والعريش.

وأن هذا الخطر يحتاج إلى قيادة رشيدة للبلاد، فقام بخلع السلطان نور الدين علي ، ونصب نفسه سلطانًا للبلاد.

وفي سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م أرسل هولاكو إلى قطو رسالة تحمل وعيدًا وتهديدًا ويطلب منه أن يخضع له ، ويعترف بسلطان المغول، ومما جاء في هذه الرسالة قول هولاكو لقطز : «وليعلم سلطان مصر أن خيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال»، فلما وصل هذا الخطاب إلى قطز جمع امراءه وشاورهم في الأمر ، فاتفقت كلمتهم على قتل رسل هولاكو وتعليق رؤوسهم على باب زويلة .



باب زويلة

وفي ذلك الوقت رجع إلى مصر كثير من المماليك الذين خرجوا منها قبل ذلك خوفًا من بطش أيبك بهم ، وأن ينالهم ما نال أقطاي، ورحب قطز بمقدمهم ومنحهم الإقطاعات الجليلة الواسعة ، فصار المماليك بذلك قوة متحدة ، وكان من ضمن المماليك الذين رجعوا إلى القاهرة والقائلين بوجوب مقاتلة التتار ، الأمير بيبرس البندقداري، الذي استقبله قطز مرحبًا سنة ٦٥٨هـ / ١٨٦٠م ، وأنزله بدار الوزارة ، وأقطعه قليوب وأعمالها.



ثـم نـودي في القـاهرة وسـائر الأقـاليم بـالخروج إلى الجهـاد ، وفي نفس الوقت أخذ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمـة للحـرب، فقام بفرض ضرائب على أهـل مـصر ، إلا أنـه قوبـل بمعارضـة شـديدة مـن جانـب القـضاة والعلـماء، إذ اشـترطوا عليـه أولًا إحـضار مـا عنـده وعنـد حريمه، وما عند الأمراء من الحلى وضربها سكة ونقدًا، وإنفاقها على تجهيز الجيش، فإن لم تقم بالكفاية جاز له أن يفرض ضرائب جديـدة عـلى الرعيـة، وأن يقترض من أموال التجار ليستعين بـذلك عـلى مجاهـدة التتـار، وامتثـل قطز لرؤى العلماء ولم يشرع في جمع الأموال من المصريين إلا بعـد أن أحـضر هو والأمراء ما عندهم من الحلى والأموال ووضعوها بـين يـدي الـشيخ عـز الدين بن عبد السلام رحمه الله.

وأرسل قطز إلى ولاته على مدن وأقاليم مـصر أن يرسـلوا إليـه المحـاربين تمهيدًا للخروج إلى الشام، وبعد أن أكمل قطز استعداداته لملاقة التتار ، سار بجيشه حتـى نـزل بالـصالحية، وتكاملـت عنده الجنـود ، فطلـب اللقـاء مـع أمراء المماليك، وتكلم معهم في الرحيـل لقتـال التتـار، فوجـد مـنهم تقاعـسًا ورفضوا الرحيل، فقال لهم: «يـا أمـراء المـسلمين، لكـم زمـان تـأكلو أمـوال بيـت المـال، وانـتم للغـزاة كـارهون ، وأنـا متوجـه ، فمـن اختـار الجهـاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيتـه ، فـإن الله مطلـع عليـه، وخطيئـة حـريم المـسلمين في رقـاب المتـأخرين» ، وكـان لهـذه الخطبـة أثرهـا في تقويـة

روحهم المعنوية ، فتحالفوا جميعًا على الجهاد في قتال العدو ودفعه عن البلاد.

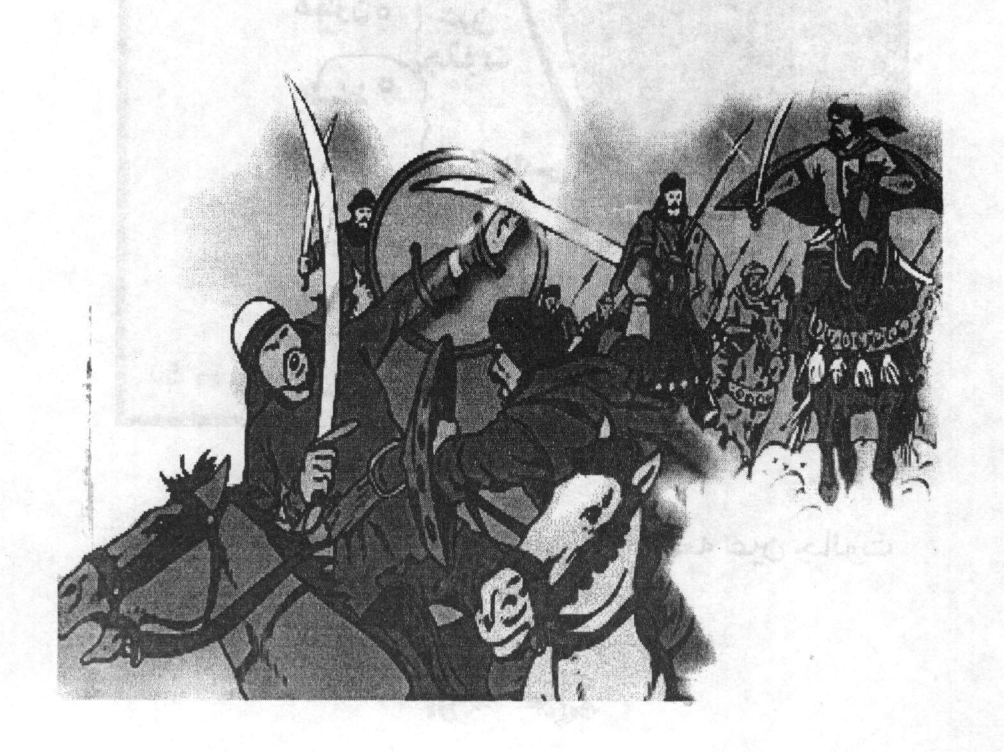
وفي تلك الأثناء رجع هولاكو إلى بلاد فارس بسبب وفاة الخان الأعظم مانجوخان، وجعل كتبغانوين نائبًا عنه بحلب، وبيدرا نائبًا عنه بدمشق.

وفي رمضان سنة ٦٥٨هـ/ أغسطس ١٢٦٠م خرج قطز من مصر على رأس الجيوش المصرية، ومن انضم إليه من الجنود الشامية وغيرهم، وطلب من الأمير بيبرس أن يتقدم بفرقة من العسكر ليكشف أخبار التتار، فسار بيبرس حتى لقى المغول عند غزة ، وتمكن بيبرس من أن يلحق بطلائع المغول هزيمة كانت الأولى في تاريخ المغول، غير أنها لم تكن حاسمة، وأخذ بيبرس يناوش العدو ويراوغه ليخفي عنه تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز الذي سار بجيوشه حتى وافى بيبرس عند عين جالوت[(١)].

وفي صباح يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/ الثالث من سبتمبر سنة ١٢٦٠م التقى الجمعان المغولي والمملوكي في معركة عامة عند عين جالوت، وقد أظهر الجيش المملوكي في هذه المعركة شجاعة نادرة ، وتقول أحداث سير المعركة أن المغول انقضوا على المصريين في بادئ

(١) بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين ويرجع سبب تسميتها بهذا الاسم ، لما قيل أن داود قتل جالوت في هذا المكان.

الأمر وتمكنوا من تشتيت شمل جناحهم الأيسر، فاضطرب جيش المسلمين ، ولكن السلطان قطز استطاع أن يجمع شملهم مرة أخرى ، وذلك عندما ألقى بخوزته على الأرض، وصرخ بأعلى صوته : «واإسلاماه» ، وقاد الهجوم بنفسه على المغول، فضرب بذلك مثلًا من أمثلة الشجاعة النادرة ، وسرعان ما التف حوله جنوده ، وحملوا على المغول حملة صادقة ، فاختل توازنهم وارتدوا إلى التلال المجاورة بعد أن تركوا قائدهم كتبغا صريعًا في أرض المعركة، وابنه أسيرًا في أيدي المماليك.



تحرك الجيشين المصري والمغولي في موقعه عين جالوت



ثم عاد المغول وانتظموا مرة ثانية عند بيسان ، فاشتبك معهم المسلمون في معركة ثانية ، واشتدت وطأة القتال، وعاد السلطان قطز يصيح صيحة عظيمة سمعها معظم العسكر وهو يقول : «وإسلاماه» ثلاث مرات، «يا الله ، انصر عبد الله قطز على التتار»، عند ذلك مالت كفة النصر إلى جانب جيش المسلمين ، وكانت هي الهزيمة الأولى للتتار في تاريخهم.





عند ذلك نزل السلطان قطز عن فرسه ، ومرغ وجهه على الأرض وسجد لله شكرًا ، وكان هذا النصر إشارة لخلاص الشام من أيدي التتار ، إذ أسرع ولاة التتار بالهرب قبل أن يقعوا في أيدي الشاميين الذين هبوا للانتقام من المغول، وهذا بعض السر في استيلاء قطز في عدة أسابيع على البلاد الشامية كلها ، حيث أقيمت له الخطبة في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات، وقامت في مدينة دمشق – لـمّا وصلت أخبار عين جالوت – مذبحة كبرى في التتار، ومن عاونهم على المسلمين من سكانها ، ونخص بالذكر منهم النصارى الذين تهجموا على الإسلام واعتدوا على المسلمين في خلال فترة الاحتلال المغولي للمدينة، ولم يستتب النظام والأمن في هذه المدينة إلا بعد أن دخلها قطز على رأس الجيوش المصرية والشامية الظافرة في السابع والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ / سبتمبر ١٢٦٠م.

وأصبح السلطان قطز المظفر بعد موقعة عين جالوت هو سيد الموقف في بلاد الشام كلها من الفرات إلى حدود مصر، فلم يبق أمامه من بقايا البيت الأيوبي سوى بعض الشخصيات العجاف التي كانت لا تستطيع الصمود في وجه قاهر التتار، وكان أن عفا قطز عن الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص وأمّنه ، وكذلك فعل مع الملك المنصور الثاني صاحب حماة ، وأقره على حماة وبعرين ، كما أعطاه المعرة، وكانت بيد الحلبيين ، أما الملك السعيد حسن أمير بانياس والصبية – وهو الذي تواطأ مع التتار وانضم إليهم يوم

عين جالوت في محاربة المسلمين – فلم يقبل قطز عذره وأمر بضرب عنقه فضربت في الحال.

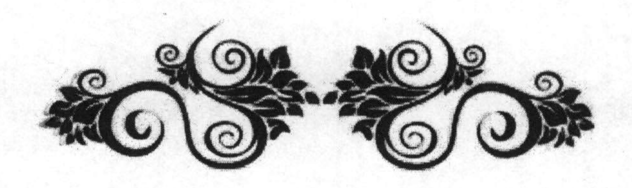
ويمكن القول أن انتصار المماليك في عين جالوت قد جعلهم يحصلون على ما كان ينقصهم من مجد لابد منه ، لتثبيت أركان دولتهم، فنسى الناس أصلهم غير الحر، وتناسوا أنهم في حقيقة أمرهم مغتصبوا العرش من سادتهم الأيوبيين ، ولم يعد الناس يذكرون إلا شيئًا واحدًا ، هو أن المماليك أنقذوهم من التتار، وأن بقاء المماليك في الحكم إنما هو ضرورة لابد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى.




معركة عين جالوت
٦٥٩ هجري
الموافق ١٢٦٠ ميلادي
خط سير جيش المسلمين
بقيادة الظاهر بيبرس
خط سير الجيش المغولي
بقيادة كاتبغانوين
الجزيرة
الفرات
دير الزور
حلب
جيش المغول بقيادة
حماة
دمشق
بادية الشام
طبريا
بيسان
عمان
القدس
حيفا
عين جالوت
يافا
غزة
طرابلس
بيروت
اللاذقية
الاسكندرية
مرسين
انطاليا
قبرص
نيقوسيا
لارنكا
ليماسول
البحر المتوسط
أطلس تاريخ العالم القديم والمعاصر
الاسكندرية
جيش المماليك
بقيادة الملك المظفر
قطز برفقة بيبرس
السويس
القاهرة
مصر



أهم نتائج معركة عين جالوت



أهم نتائج معركة عين جالوت

كانت معركة عين جالوت من المواقع الحاسمة في التاريخ الإسلامي خاصة ، والتاريخ العالمي بوجه عام ، لما ترتب عليها من نتائج نجملها فيما يلي:

١- كانت هذه المعركة ضربة قاصمة لجيش التتار الذي لم يُهزم من قبل هذه المعركة قط ، فالهزيمة ومقتل القائد المغولي أنهيا أسطورة التتار ، وهي أسطورة سجلتها انتصاراتهم المتواصلة ، وإسقاطهم للخلافة العباسية .

٢- تتجلى أهمية انتصار المسلمين في عين جالوت إذا تصورنا عكس ما حدث ، فلو أن التتار هم الذين انتصروا لكانوا قد قضوا على آخر معقل إسلامي، وهو مصر ، الأمر الذي قد يؤدي إلى ضعف الإسلام والمسلمين في ربوع الأرض.

٣- كان انتصار المماليك في عين جالوت مقدمة لتوطيد العلاقات بين حكام التتار - الذين دخلوا في الإسلام بعد ذلك - وبين المماليك في مصر والشام ، وقد تحالف الفريقان ضد العدو المشترك الذي يتمثل في أسرة

هولاكو بفارس ، ونتج عن هذا التحالف انتشار الإسلام بين سكان هذه المناطق بسبب مصاهرة المماليك لسلاطين التتار المسلمين.

٤- أحدث انتصار المماليك في عين جالوت رد فعل عند المسلمين الذين كانوا يخضعون للمغول في فارس، ويعانون الاضطهاد والتشريد ، فقوي موقفهم هناك، واستطاعوا الصمود أمام مناورات اليهود والنصارى، وأصبحوا ينافسونهم في تبوأ الزعامة والصدارة ، وأخذوا يشرحون للحكام المغول تعاليم الإسلام ويرغبونهم في اعتناقه ، حتى تكللت مساعيهم بالنجاح ، وأصبح الإسلام دينًا رسميًا لدولة المغول في فارس.

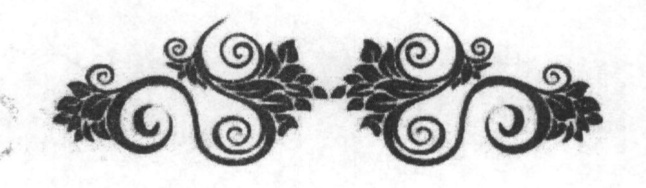
٥- أسفرت هذه المعركة عن فشل ذريع لسياسات الصليبيين في الشرق والغرب ، ورفعت مصر المملوكية إلى مركز الزعامة في العالم الإسلامي، وكان يُنظر إلى مصر على أنها الدولة الوحيدة التي تصدت للتتار وللصليبيين في آن واحد.

٦- تسببت هذه المعركة في اتحاد مصر والشام في ظل المماليك بعد أن تمزق هذا الاتحاد عقب سقوط الدولة الأيوبية ، وأصبحت دولة المماليك تمثل قوة كبيرة يخشاها كل أعداء الإسلام.



مقتل السلطان قطز

على يد بيبرس



مقتل السلطان قطز على يد بيبرس



في الوقت الذي استعدت فيه القاهرة لاستقبال السلطان قطز بطل عين جالوت، وأقيمت الزينات في الطرقات والأسواق والحوانيت تحية له وتكريمًا لبطولته ، إذا بالأمور تتطور بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز واعتلاء بيبرس عرش السلطنة ، ذلك أن الأمير بيبرس كان يأمل أن يجد من قطز حظًا من التقدير بعد ما أبداه من شجاعة في محاربة التتار، فطلب بيبرس من قطز أن يوليه نيابة حلب، فاعتذر له قطز ، وآثر على نيابة حلب الملك المظفر علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار، الأمر الذي أغضب بيبرس ، وجعله يضمر السوء لقطز، ومما حفّز بيبرس على قتل قطز أن المماليك الصالحية ومنهم بيبرس لم ينسوا لقطز أنه شارك في قتل كبيرهم أقطاي في زمن أيبك، وبمعنى آخر فإن المماليك الصالحية أحسوا دائمًا أن لهم ثأر في عنق قطز، ولذا لم يكونوا في حاجة إلى مزيد من التحريض والاستثارة ضد قطز.

وقد أدرك قطز ما يضمره له بيبرس، فتحرز منه ، وكان بيبرس قد دبر خطة لقتل السلطان قطز بالاتفاق مع عدد من أمراء المماليك الصالحية من بينهم الأمير سيف الدين بهادر المعزى، والأمير بدر الدين بكتون الجوكندار المعزى ، وسرعان ما حانت الفرصة لتنفيذ الخطة عندما وصل ركب السلطان قطز إلى الصالحية في طريقه إلى القاهرة ، وهناك أبدى قطز رغبته

في الصيد برفقة الأمراء ، فلما فرغ من صيده وعاد إلى الدهليز السلطاني تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبي التتار، فأجابه السلطان إلى طلبه ، وأنعم عليه بما أراد، وعندئذ تظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد السلطان، وكانت هذه إشارة بينه بين شركائه في الخطة ، فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة، فبَدّره الأمير بدر الدين بكتون بالسيف، وضربه على عاتقه، واختطفه الأمير بدر الدين أنس الإصبهاني وألقاه عن فرسه ، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه، وذلك يوم السبت خامس عشر من ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ / أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠م .

وكان طبيعيًا أن تؤول السلطنة بعد مقتل السلطان قطز إلى قاتله الأمير ركن الدين بيبرس ، بوصفه أقوى الأمراء الصالحية من ناحية ، وصاحب الفكرة في قتل قطز من ناحية ثانية ، فضلًا عن مواقفه المشرفة في محاربة التتار من جهة ثالثة ، وتروي المراجع أن أمراء المماليك الصالحية الذين قتلوا قطز ساروا إلى الدهليز السلطاني بالصالحية ، وقد أجمعوا أمرهم على سلطنة بيبرس ، وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك عند باب الدهليز ، أخبروه بما فعلوا من قتْل السلطان قطز، وعندئذ سألهم الأتابك:

-«ومن قتله؟» .

فقال بيبرس:

-«أنا».

فنظر إليه الأتابك وقال:

-«يا خوند اجلس في مرتبة السلطنة».

واستدعى العسكر في الحال ليحلفوا للسلطان الجديد، وفي هذه الأثناء كان القاضي برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطز، ويهنئه بانتصاره في عين جالوت، فاستُدعى القاضي نفسه ليقوم بتحليف العسكر للملك بيبرس، وبعد أن تمت الإجراءات المبدئية في الصالحية، قال الأمير أقطاي لبيبرس:

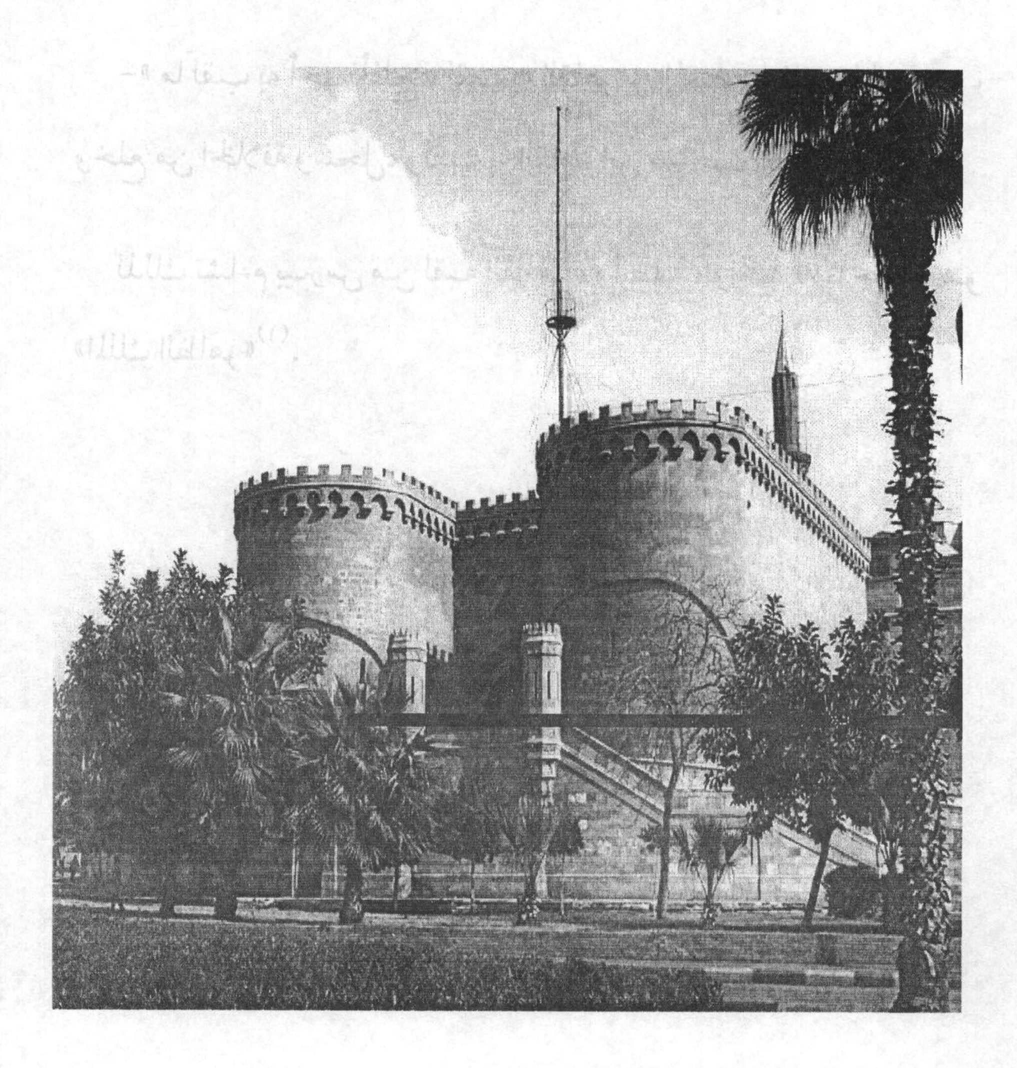
-«لا تتم السلطنة إلا بعد دخولك قلعة الجبل».

فأسرع بيبرس ومعه صحبة من الأمراء إلى القاهرة التي كانت قد زينت لاستقبال السلطان المظفر قطز بطل عين جالوت، فإذا بالمنادي ينادى في طرقات القاهرة:

-«ترحموا على الملك المظفر وادعو لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس».

وهكذا شق بيبرس طريقه إلى قلعة الجبل، فلقيه الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة، وكان قد خرج للقاء قطز، فأخبره بيبرس بما حدث،

وعندئذ حلف نائب السلطان للسلطان الجديد، وتقدمه إلى القلعة حيث أعلن الأمراء ولاءهم لبيبرس ، واستقر السلطان الجديد في قلعة الجبل قاعدة الحكم في البلاد.



قلعة الجبل

ويروى المؤرخ ابن تغري بردي أن الوزير زين الدين يعقوب – وكان فاضلًا في الأدب وعلم التاريخ – دخل على السلطان بيبرس بالقلعة، فأشار عليه بتغيير لقبه «القاهر» وقال له:

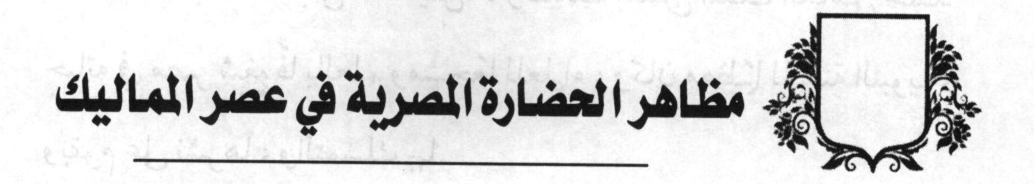
–« ما لقب به أحد فأفلح ، لقب به القاهر بن المعتضد، فلم تطل مدته ، وخلع من الخلافة وسحل، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم.

لذلك تشاءم بيبرس من لقبه القاهر ، وأبطله ، واتخذ لقبًا جديد هو «الملك الظاهر»[1].

(١) « النجوم الزاهرة» (٧/ ١٠٣-١٠٤) نقلًا عن «العصر المماليكي في مصر والشام»، دكتور سعيد عاشور (ص٤٠).

مظاهر الحضارة المصرية
في عصر المماليك





مظاهر الحضارة المصرية في عصر المماليك

ازدخرت الحياة الثقافية في مصر وصعيدها في عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك لعوامل متعددة ، منها أن مصر أصبحت في ذلك العصر نقطة الارتكاز ، ومركز الإشعاع ، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار، ومما جعل مصر محور للنشاط العلمي وهو ما أصاب المسلمين في القرن السابع الهجري من كوارث على أيدي التتار في العراق والشام ، وعلى أيدي النصارى في الأندلس، إذ تحول كثير من علماء هذه البلاد إلى مصر ، واختاروها مقرًا لإقامتهم ونشاطهم العلمي.

وقد اهتم سلاطين الأيوبيين بنشر العلوم الإسلامية ، ورعاية العلماء، فكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب شديد الكلف بعلوم الدين ، وأنشأ بعض المدارس الشهيرة ، مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية، وكان حريصًا على سماع الدروس من أفواه الأئمة، ويأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث الشريف ، وسار العزيز عثمان على نهج أبيه ، فسمع الحديث الشريف بالإسكندرية من علمائها المشهورين، كما كان العادل أبو بكر أيوب شديد الحب للعلماء، حتى قيل إن الإمام فخر الدين الرازي

صنف له كتابه «تأسيس التقديس» ، وكذلك أمضى الملك الكامل محمد حياته في مصر شغوفًا بالعلم ومشجعًا للعلماء ، وكان معظمًا للسنة النبوية، ويقوم على نشرها ، والتمسك بها.

وسار سلاطين المماليك على سياسة أسلافهم ، فاهتموا بدور العلم، وشجعوا العلماء ، حتى فاق تشجيعهم للعلماء سلاطين بني أيوب، ووجّه بعض الأمراء عنايتهم إلى نشر العلوم الإسلامية كالفقه والحديث واللغة والتاريخ ، بل كان منهم من يقوم بالتدريس لطلبة العلم وكفالتهم، وقاموا بإنشاء كثير من دور العلم والمكاتب خاصة في بلاد الوجه القبلي، وكانت مناهج التعليم في هذه المكاتب تدور حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين، كما انتشرت في صعيد مصر – زمن الأيوبيين والمماليك – ظاهرة التدريس في المساجد، وكان يطلق على المدرس داخل المسجد لقب «المفيد» ، وكان التدريس في المساجد لا يقتصر على العلوم الدينية ، بل تخطاه إلى غيره من العلوم كالطب وغيره.

وكانت المدارس بمثابة كليات عالية تدرس بها العلوم الإنسانية التي ارتبطت بأصول الدين كالفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة، فضلًا عن الدراسات العقلية كالفلسفة والمنطق، أو العلوم العلمية كعلم الفلك ، وعلم الهندسة والكيمياء والطب، وكان تعيين المدرسين في وظائف

التدريس بالمدارس يتم بأن يحصل الطالب على إذن من كبار العلماء الذين تولوا تدريسه ، والإذن عبارة عن شهادة أو إجازة للدارس بالسماح له بالتدريس ، وإذا كان المدرس هو الذي يقوم بتدريس مادة معينة تخصص فيها ، فإن المعيد كان يساعده وذلك بإعادة ما ألقاه المدرس على الطلبة لشرح الصعب وتبسيطه.

وقد ألحقت بكل مدرسة خزانة كتب يرجع إليها المدرسون والطلاب، وقد كان للأوقاف الخيرية أكبر الأثر في تمكين هذه الدور من القيام برسالتها.

ومن الملاحظ أن مصر شهدت في عصر المماليك نشاطًا دينيًا منقطع النظير، وقد يكون السر في هذا النشاط الديني الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، مغتصبون للحكم والعرش من أصحابه الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين وعلمائه ستارًا يخفي هذه الحقائق عن أعين المحكومين ، ويقربهم إلى قلوب الشعب، وما دام المماليك مسلمين يؤمنون بالله ورسوله ، ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء سنن الأولين ، ويعمرون المساجد، فهم إذا حكام صالحون ، ولا داعي للتفكير كثيرًا في أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم.

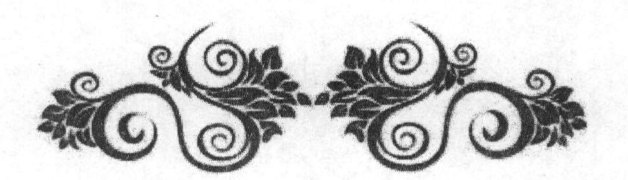
وهناك ملاحظة أخرى ، وهي أن جزءًا كبيرًا من النشاط الديني في عصر المماليك كان موجهًا لخدمة المذهب السني ، ومحاربة المذهب الشيعي، ذلك أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه سلاطين بني أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر ، إلا أن الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر المماليك ، وقد لجأ سلاطين المماليك إلى استخدام العنف أحيانًا لكبت الشيعة، وفي الوقت نفسه حارب سلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر ، فأمر السلطان الظاهر بيبرس باتباع المذاهب السنية الأربعة ، وتحريم ما عداها ، كما أمر بألا يولي قاضي ولا تقبل شهادة أحد ، ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ما لم يكن متبعًا لأحد هذه المذاهب.





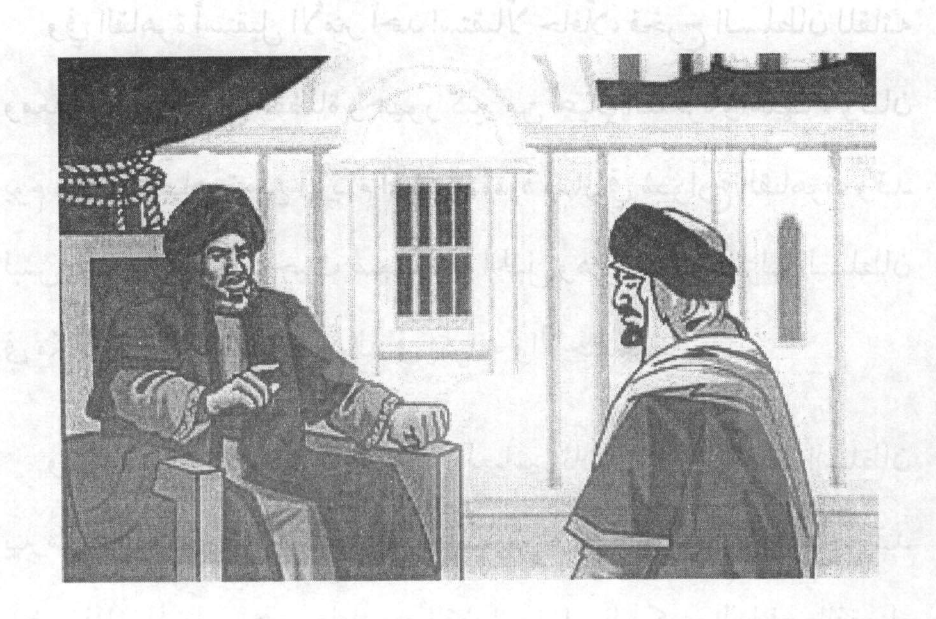
إحياء المماليك

للخلافة العباسية



إحياء المماليك للخلافة العباسية

قام المماليك بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وكان لهذا العمل نتائج هامة بالنسبة لتاريخ مصر والعالم الإسلامي ، ذلك أن العالم الإسلامي أخذ يشعر بفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار سنة ١٢٥٨م ، إذ أمسى المسلمون بدون خليفة ، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة رسول الله ﷺ .



وكان السلطان بيبرس هو صاحب فكرة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، وذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر في دمشق كتب إليه يخبره بأن أحد بني العباس – وهو الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء لدين الله العباسي – وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بني مهنا يشهدون على صحة نسبه ، وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة، وكان ما إن وجد بيبرس فرصته في مجيء ذلك الأمير، فرد على الأمير البندقدار يأمره بالقيام على خدمته وتعظيم حرمته ، كما طلب منه أن يرسل معه حراسًا إلى مصر .

وفي القاهرة أُستقبل الأمير أحمد استقبالًا حافلًا، فخرج السلطان للقائه ومعه الوزير وقاضي القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها ، وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام المشهودة، إذ سار في شوارع القاهرة، وقد لبس الشعار العباسي، حيث صعد قلعة الجبل وهو راكب،فأنزله السلطان في مكان جليل قد أُعد له، وبالغ في إكرامه والاحتفاء به.

ولم يمض على وصول الأمير أحمد العباسي ثلاثة أيام حتى عقد السلطان بيبرس مجلسًا بقاعة الأعمدة في القلعة لمبايعة الأمير العباسي بالخلافة ، وقد حضر ذلك المجلس جمع حافل من القضاة ونواب الحكم والعلماء والفقهاء

وأكابر المشايخ والتجار وأعيان الناس، في حين جلس السلطان متأدبًا إلى جانب الأمير أحمد، فلم يستخدم كرسيًا أو مرتبة أو مسندًا، ولما اكتمل الجمع شهد العربان وخادم من البغاددة بصحة نسب الأمير أحمد العباسي، وأقر هذه الشهادة أيضًا بعض القضاة والفقهاء، وقبل قاضي القضاة تاج الدين تلك الشهادة وسجلها، ثم بايع الأمير أحمد بالخلافة.

ولم يكد قاضي القضاة يفعل ذلك حتى تقدم السلطان بيبرس وبايعه أيضًا على كتاب الله وسنة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذ أموال الله بحقها، وصرفها في مستحقها ثم بعد ذلك بايع جميع الناس على اختلاف طبقاتهم الخليفة الجديد، كما كتب بيبرس إلى سائر الملوك والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة العباسي الجديد الذي لقب بقلب المستنصر بالله، وأمرهم بأن يدعى له على المنابر، ثم يدعى للسلطان بعده، وأن تنقش النقود باسمهما، أما الخليفة العباسي الجديد فقد قام بدوره بتقليد السلطان الظاهر بيبرس البلاد المصرية، ومعنى ذلك أن سلاطين المماليك أصبحوا في نظر الناس منذ ذلك الوقت أصحاب حق شرعي في الحكم بعد أن غدوا متمسحين ببيعة الخلافة العباسية.

وكانت هذه المراسيم في يوم الاثنين ثالث عشر جمادي الأولى

سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، وفي يوم الجمعة التالي مباشرة صلى الخليفة بالناس في جامع القلعة ، ودعا في الخطبة للملك الظاهر بيبرس فسُر الظاهر بذلك ، ونثر عليه قطعًا كثيرة من الذهب والفضة ، وهكذا قضى الخليفة المستنصر بالله أيامه في هناء بين ربوع القاهرة، فتارة يصحبه السلطان للنزهة في النيل ومشاهدة السفن الحربية وهي تقوم بمناوراتها وألعابها على صفحة الماء، وطورًا يخرج مع السلطان إلى بعض البساتين خارج القاهرة، ثم إن الظاهر بيبرس لم يقنع بكل ذلك، وإنما اراد أن يجمع جميع أمراء المملكة ويقرأ عليهم تقليد الخليفة للملك الظاهر في اجتماع عام ، وكان أن عقد ذلك الاجتماع في المطرية ، وسمع جميع الأمراء تقليد الخليفة للسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورًا ونجدًا.

ولما فرغ القاضي فخر الدين بن لقمان – صاحب ديوان الإنشاد – من قراءة ذلك التقليد ، أحضر السلطان مظاهر خلعة السلطنة، وهي جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من الذهب وسيف، فلبسهم بيبرس ، واتجه موكب كبير نحو القاهرة، فدخلها من باب النصر، وشق القاهرة إلى القلعة وسط الزينات والأفراح، وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره[١] .

(١) «بدائع الزهور لابن إياس » (١/١٠١-١٠٢) نقلًا عن : . «العصر المماليكي في مصر والشام»، ص ٣٥٧.

وهكذا غدت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية، وظل الخلفاء العباسيون يتعاقبون واحدًا بعد آخر في مصر حتى الفتح العثماني لهذه البلاد سنة ١٥١٧م ، وجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس وضع قواعد السياسة التي اتبعها سلاطين المماليك بمصر تجاه الخلافة العباسية ، إذ لم يلبث الخليفة العباسي أن أصبح شبه محجور عليه في القاهرة، فلا يتصل به أحد من المسؤولين في الدولة دون إذن السلطان ، وبعبارة أخرى فإن الوضع الذي استقر عليه حال الخلفاء العباسيين في مصر ، صار أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عهدًا بالسلطنة ويُدعى للخليفة قبل السلطان على المنابر، وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شؤون الدولة ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد.

وقد عبَّر المقريزي عن ذلك الوضع فقال عن الخليفة العباسي في القاهرة: «إن خلافته ليس فيها أمر ولا نهي، وحسبُه أن يقال له أمير المؤمنين»[1].



(١) « المواعظ» (٣/ ٣٩٤) ، نقلًا عن المصدر السابق.

خريطة العالم الإسلامي في عصر المماليك





العلاقات الخارجية لدولة المماليك

العلاقات الخارجية لدولة المماليك

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠م أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، فنظرإليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال، في حين نظرت إليها القوى الأخرى - خارج المحيطين العربي والإسلامي- نظرة خوف واحترام، وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت المسلمين في الشرق الأدنى في شجاعة وبأس، فحمت الشام ومصر من خطر التتار، وطردت الصليبيين من أرض الشام، فضلًا عن نجاح السلاطين المماليك في إحياء الخلافة العباسية في مصر - بعد سقوطها في بغداد - مما جعل لهم ولدولتهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي، إذ جعلهم يبدون في صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها.

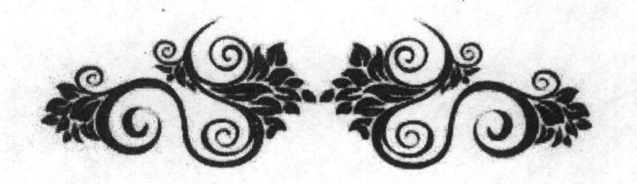
وهكذا أصبحت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبلة الأصدقاء والأعداء جميعًا، الأصدقاء يطلبون تأييدها، وينشدون مساعدتها، والأعداء

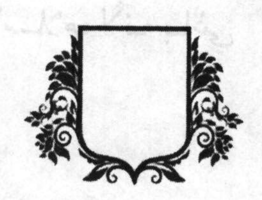
يبغون ملاطفتها ومسالمتها ، أو مهادنتها اتقاء لبأسها، وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقًا في ذلك العصر ليجعل التجارة والسفراء يترددون على مصر بين الحين والآخر، يبغون عقد اتفاقيات تجارية أو إلغاء مكس، أو تخفيض ضريبة ، وبذلك شهدت القاهرة نشاطًا دبلوماسيًا ضخمًا في عصر المماليك، وصارت مركزًا لشبكة واسعة من العلاقات الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة.

وهذه إطلالة سريعة عن هذه العلاقات توضح مدى ازدهار دولة المماليك في مصر والشام.



المماليك ومغول القفجاق





المماليك ومغول القفجاق

عندما قسم ‌جنكيز خان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا من نصيب جوجي ابن جنكيز خان،، فأقام هناك دولة عرفت باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتها ، ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام، الأمر الذي جعله يدخل في عداء وحروب مع طوائف المغول الوثنيين ، وبخاصة مغول فارس، ومن ناحية أخرى بدأ بركة خان في مد جسور التقارب مع القوى الإسلامية المجاورة ، وبخاصة دولة المماليك، ولـمّا علم السلطان الظاهر بيبرس بإسلامه كتب إليه يغريه بقتال هولاكو ، ويرغبه في ذلك ، ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم الوافدين على بلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بعض هؤلاء خاضعين لهولاكو ، ففروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم هولاكو.

ولم يلبث أن وفد على مصر سنة ١٢٦٣ رسل بركة خان يحملون رسالة للسلطان بيبرس جاء فيها : «فليعلم السلطان أني حاربت هولاكو الذي من

لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصبًا لدين الإسلام، لأنه باغي والباغي كافر بالله ورسوله»[1].

وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة مطولة يحثه فيها على الاستمرار في قتال هولاكو، ولم يكتف بيبرس بهذه الرسالة، بل امر بالدعاء لبركة خان بعد الدعاء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة، كما أرسل بيبرس له هدية ، وقد استقبل بركة خان رسل بيبرس بحفاوة بالغة ، وقد حكى رسل بيبرس عند عودتهم إلى مصر أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إمامًا ومؤذنًا خاصًا ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس.



بركة خان

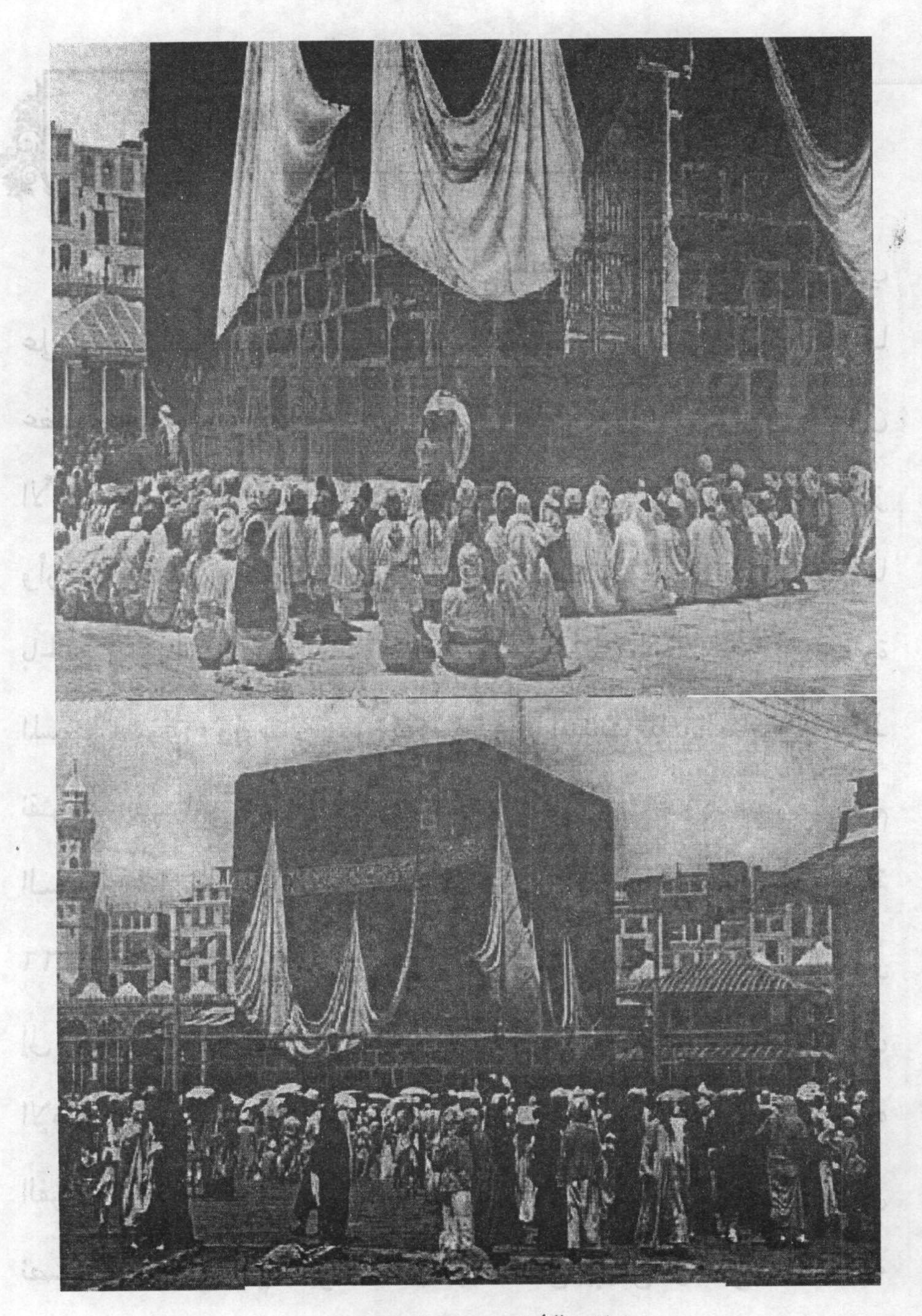
(١) «عقد الجمان» لبدر الدين العيني.

المماليك والدول الإسلامية في آسيا



المماليك والدول الإسلامية في آسيا

حرص سلاطين المماليك في مصر على بسط نفوذهم السياسي والديني على الحجاز أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين، وكان شرفًا عظيمًا ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في صورة خادم الحرمين الشريفين، والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة ، وكان سلاطين المماليك في مصر يبدون اهتمامًا خاصًا بالحجاز وعناية كبرى بشؤونه ، ولم يقتصر ذلك الاهتمام وعند عمارة المسجد النبوي ، وإرسال كسوة الكعبة ، وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذهم السياسي على الحجاز، ومما ساعد المماليك على بسط نفوذهم السياسي على الحجاز هو وقوع الخلاف بين أشراف الحجاز ، ففي سنة ١٢٦٦م قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة ليشكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف جماز أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمارة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالد جماز ، فانتهز بيبرس هذه الفرصة، وتدخل للصلح بينهما، وكتب إلى جماز يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة، وتسلم الشريف تقليدًا بذلك من بيبرس، وامتثل جماز لما قاله بيبرس.



الكعبة أيام عصر المماليك

وفي سنة ١٢٦٨م وقع خلاف في مكة بين الشريف نجم الدين أبي نمي وبين عمه وشريكه في إمارة مكة الشريف بهاء الدين إدريس ، وانتهز بيبرس أيضًا هذه الفرصة للإصلاح بينهما وتأكيد سلطانه عليهما جميعًا، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة بشرط أن لا يجمعوا من أحد مكوسًا، وألا يمنع أحد من زيارة البيت ، واشترط بيبرس على أميري مكة أن يُخطب باسمه في الحرم والمشاعر، وأن تضرب السكة باسمه، مما يضمن له السيادة السياسية على الحجاز، وبعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك ، كتب لهما بيبرس تقليدًا بالإمارة، وسلمت لنوابهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام، ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ، ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى ، وكان أن نفذ بيبرس عزمه سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م ، فزار المدينة، وغسل الكعبة بيديه، وانتهز تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه ، وهو الأمير شمس الدين مروان نائبًا عنه في مكة ، ليكون الحل والعقد على يديه.

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في الحجاز بعد بيبرس، إذ استمرت الخلافات بين الأشراف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه دولة المماليك.





الظاهر بيبرس

أما بلاد اليمن فقد ارتبط حكامها من بني رسول بعلاقات الود مع سلاطين المماليك في مصر ، وكانوا يرسلون الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس، وكان هو يرد على تلك الهدايا بأحسن منها ، وسبب هذه العلاقة أن الخلافة العباسية بعد قيامها في مصر جعلت لسلاطين المماليك نوعًا من الولاية على بقية ملوك العالم الإسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد ذكرها في التقليد الذي منحه الخليفة المستنصر بالله العباسي للسلطان الظاهر بيبرس، وهي الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية.

وقد استمرت هذه العلاقة بين ملوك اليمن وسلاطين المماليك حتى سنة ١٣٠٣م عندما تولى ملك اليمن عزيز الدين داود ، فأظهر التمرد على دولة المماليك، ولم يستمر هذا التمرد طويلًا ، فسرعان ما عادت العلاقة بين ملوك اليمن وسلاطين المماليك إلى طبيعتها، ومن الثابت أن المنازعات بين أمراء اليمن بعضهم وبعض من جهة، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى أتاحت لسلاطين المماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر في شؤون اليمن وإدعاء هيمنتهم على ملوكهم، من ذلك أن الملك سيف الدين طلب من السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٢٥م أن يمده بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذي سيطر على معظم

أنحاء اليمن، فأمده السلطان الناصر محمد بحملة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، وهكذا ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء لسلاطين المماليك في مصر، ويحرصون على إرضائهم مما حقق لأولئك السلاطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية.

وثمة دولة إسلامية أخرى في آسيا ربطتها بدولة المماليك علاقات المودة والصداقة ، هي دولة هندستان، فقد استطاع محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دحلي «١٣٢٥ – ١٣٥١م » في توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع على حساب الصين وخراسان من جهة، ومحالفة سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمغول فارس من ناحية أخرى، ولهذا الغرض أرسل محمد بن تغلق إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٣١م يطلب معونته ضد المغول، ثم إن محمد بن تغلق لم يكتف بالسعي لكسب تأييد السلطان الناصر محمد، بل حاول أيضًا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسي بالقاهرة، فأجابه الخليفة المستكفى بالله العباسي إلى رغبته، وقد حرص فيروز شاه الثالث – الذي خلف محمد بن تغلق في الحكم سنة ١٣٥١ – على اتباع نفس السياسة.

وهكذا يتضح لنا كيف ان دولة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقًا يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها.



نفوذ دولة المماليك

في شمال أفريقية



نفوذ دولة المماليك في شمال أفريقية

ارتبطت الدول الإسلامية في شمال إفريقية بعلاقات قوية مع دولة المماليك، وهناك عوامل أدت إلى تعميق هذه الروابط، منها رابطة الجوار والإسلام ، ورابطة الخلافة ، ورابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي ، ثم رابطة الحج إلى بيت الله الحرام، نظرًا لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز.

وقد تعاون السلطان بيبرس مع ملك تونس لصد حملة لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠م ، واستعد بيبرس لإرسال جنود من مصر لمساعدة أهل تونس في حربهم ضد لويس التاسع، وعندما جاءت الأخبار إلى بيبرس بموت لويس التاسع في تونس ، وفشل حملته أوقف هذه الاستعدادات ، وأما بقية بلاد المغرب الإسلامي فقد ارتبطت أيضًا بعلاقات وثيقة مع دولة المماليك، ومن مظاهر هذه العلاقة أن سلاطين المماليك حرصوا على إرسال البشائر إلى بلاد المغرب الإسلامي كلما أحرزوا انتصارًا على أعداء المسلمين في الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين، ثم إن

ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة المماليك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامي ضد الأخطار التي هددته من جهة المشرق.

وفاة لويس التاسع في تونس



علاقة دولة المماليك بالدولة العثمانية

علاقة دولة المماليك بالدولة العثمانية

ارتبطت الدولة العثمانية[1] بعلاقات وثيقة مع دولة المماليك، لاسيما وأن الدولة العثمانية بذلت جهودًا كبيرة لمواجهة القوى الصليبية المجاورة لها، وبخاصة الدولة البيزنطية، وهو أمر قوبل بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية في الشرق الأدنى، وزاد من ذلك الشعور الودي المتبادل بين المماليك والعثمانيين تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمور لنك المغولي، مما حتم ضرورة الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر، غير أن هذه العلاقة بين العثمانيين والمماليك لم تستمر على ما يرام، فقد ورد في بعض المراجع أن السلطان مراد الأول العثماني أرسل سنة ١٣٨٨ سفارة إلى السلطان برقوق تحمل له هدية وتحذره من تحركات تيمور لنك من تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية[2].

(١) سميت الدولة العثمانية بهذا الاسم نسبة إلى عثمان بن أرطغرل، والذي ولد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م، وهو مؤسس الدولة العثمانية في تركيا.

(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان، ورقة ١٦ مخطوط، نقلًا عن «العصر المماليكي في مصر والشام» للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (ص٢٦٦).

وإذا كان السلطان برقوق قد أكرم وفادة رسل السلطان العثماني، وأظهر استعداده للتضامن معه لصد خطر تيمور لنك إلا أنه لم يستطع أن يخفي مخاوفه من أطماع العثمانيين وخطورتهم على مستقبل دولته، فقال: «إني لا أخاف منه (تيمور لنك) فإن كل أحد يساعدني عليه، وإنما أخاف من ابن عثمان»(1).

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق، إذ أغار بايزيد الأول العثماني على قيصرية سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذي كان مشمولًا بحماية دولة المماليك، ولكن سرعان ما اعتذر بايزيد عما حدث منه إلى السلطان برقوق، وذلك عندما علم باقتراب تيمور لنك من حدود دولته، وطلب بايزيد من السلطان برقوق التعاون بين الدولتين لصد خطر تيمور لنك.

ولم تلبث هذه العلاقة بين الدولتين أن ضعفت بسبب أطماع العثمانيين، ففي مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق، أغار بازيد العثماني على أطراف دولة المماليك، واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارئدة، ولا شك أن ذلك العدوان كان كافيًا لإفساد العلاقات بالكلية بين دولة المماليك والدولة العثمانية، غير أن خطر تيمور لنك جعل العثمانيين يخطبون ود دولة المماليك،

---

(1) «إنباء الغمر» لابن حجر العسقلاني (١/ ٣٨٥)..

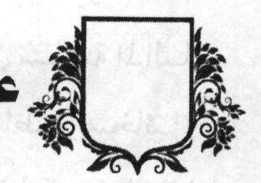
وعاد بايزيد مرة أخرى يطلب من السلطان فرج بن برقوق إقامة جبهة متحدة في وجه تيمور لنك ، ولكن كبار الأمراء في مصر رفضوا محالفة ابن عثمان، وأرسلوا إليه يذكرونه بعدوانه على ملطية، وهكذا أتيحت الفرصة لتيمور لنك لكي ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على انفراد ، فزحف على دولة المماليك، وأنزل الهزيمة بجيوشها قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠، كما أوقع بالسلطان بايزيد، وأنزل به كارثة أنقرة سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢م ، ووقع بايزيد في الأسر ، على أن وفاة تيمور لنك سنة ١٤٠٥ ، وتفكك دولته أتاح فرصة لدولة المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التي أنزلها بهما تيمور لنك، وكان أن تجددت علاقات الود بين الدولتين، فأرسل السلطان مراد الثاني العثماني سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ ، لتهنئة السلطان الأشرف برسباي بالسلطنة، ومعها هدية ، وقد ود السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثماني بسبب وقوعها في أيدي قراصنة البحر من الأوروبيين، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثاني من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباي سنة ١٤٢٦ ، وقد أقامت هذه السفارة في القاهرة لحين شهدت مجيء ثالث حملات السلطان برسباي على قبرص سنة ١٤٢٧ ، وهي الحملة التي نجحت في غزو الجزيرة ، وأسر الملك جانوس لوزجنان.

وعندما ارتقى جقمق عرش سلطنة المماليك (١٤٣٨ – ١٤٥٣) ازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية، فتبودلت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني العثماني وجقمق، وقد استمرت هذه العلاقة قائمة بين الدولتين، وعندما سقطت القسطنطينية في قبضة العثمانيين على يد السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م، أقيمت في القاهرة احتفالات رائعة ابتهاجًا بهذا الحدث، فزينت الأسواق والحارات، وأوقدت الشموع في الشوارع والمآذن، ودُقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام.

غير أنه لم يكد يتم للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البلقان، حتى عادوا يوجهون بصرهم نحو الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التي مازالت خارج قبضتهم في آسيا الصغرى، والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة في آسيا الصغرى – وأهمها إمارة قرمان وإمارة دلغادر – كانت مشمولة بالحماية المماليكية، مما أفرز هذا الوضع توترًا في العلاقات بين الدولتين، واستمرت المناوشات بينهما حتى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، ونتيجة لكثرة الثورات بين المماليك وكثرة تغيير السلاطين والتخلص منهم بالقتل أو العزل، استطاعات الدولة العثمانية إنزال الهزيمة بالدولة المماليكية في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦، ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ في عهد السلطان سليم الأول العثماني.

علاقة دولة المماليك بالدولة البيزنطية





علاقة دولة المماليك بالدولة البيزنطية

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة على اكتساب الحلفاء في الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديدًا مباشرًا في مصر والشام ، وقد أثمرت هذه السياسة عن تحالف بين المماليك ومغول القفجاق ليضربوا بهم مغول فارس الذين طالما هددوا بلاد الشام، ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر الوحيد الذي هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم في بلاد الشام، وإنما كان هناك أيضًا الخطر الصليبي.

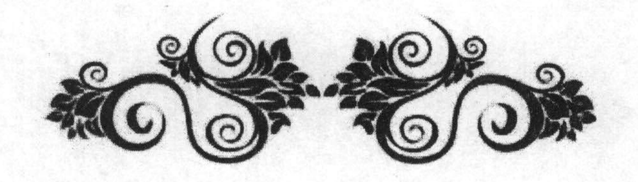
وكان طبيعيًا أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين مثلما حالفوا أعداء مغول فارس، فأخذ الظاهر بيبرس يسعى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهي العدو التقليدي للصليبيين بالشام منذ قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر ، ولم تلبث أن توطدت العلاقات بين الظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل باليولوجس، فأرسل الإمبراطور إلى بيبرس يطلب منه إيفاد بطرك من الملكانيين ليرعى شؤون الطائفة الملكانية في دولته، فاستجاب بيبرس لرغبة الإمبراطور ، وأرسل إليه سنة ١٢٦٢ الرشيد الكحال – وهو أحد رجال المذهب الملكاني – وقد صحبه في سفره الأمير فارس الدين أقوش المسعودي ، وهناك في القسطنطينية احتفى الإمبراطور البيزنطي بالسفارة المماليكية، واطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذي هدمه الصليبيون في الحملة الصليبية الرابعة ، والذي شرع

الإمبراطور في تجديده وكان أن أسهم بيبرس في تعمير مسجد القسطنطينية، وقد استمرت هذه العلاقات الودية بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية بعد عهد بيبرس وعهد الإمبراطور ميخائيل ، فعندما اعتلى الإمبراطور أندرونيق الثاني عشر الدولة البيزنطية سنة ١٢٨٢، بادر بإرسال هدية إلى السلطان قلاون، ثم استمرت العلاقات الودية بين دولة المماليك والإمبراطورية البيزنطية في عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاون – والذي شهدت دولة المماليك في عهده أقصى درجات نفوذها – ثم سار أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده على سياسته ، إلى أن أخذت الإمبراطورية البيزنطية تتعرض لضعف شديد من جانب الدولة العثمانية في أواخر القرن الرابع عشر، ولم يكن بوسع الأباطرة البيزنطيين أن يطلبوا من المماليك مساعدتهم ضد العثمانيين ، لأن المسلمين جميعًا – داخل دولة المماليك وخارجها – كانوا ينظرون إلى توسع العثمانيين على حساب القوى الصليبية في شرق أوروبا نظرة ارتياح، ويعتبرون الفتوحات العثمانية جزءًا من حركة الجهاد الديي في ذلك الدور الأخير من العصور الوسطى، وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى مصر بفتح العثمانيين للقسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالًا كبيرًا ، ودقت البشائر بالقلعة ، وزينت القاهرة ابتهاجًا بسقوط عاصمة الروم ، وأرسل السلطان إينال إلى السلطان محمد الفاتح العثماني يهنئه بهذا الفتح العظيم.





علاقة دولة المماليك بالقوى الأوربية





علاقة دولة المماليك بالقوى الأوربية

ارتبطت دولة المماليك بعلاقات وصلات عديدة مع بعض القوى الأوربية، وبخاصة في حوض البحر المتوسط، ولم يكن منتظرًا من دولة المماليك وهي إحدى قوى البحر المتوسط، وصاحبة السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى – لم يكن منتظرًا من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط.

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بني أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الإمبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي، وهي الصداقة التي استمرت قائمة بعد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ حيث كانت الهدايا والسفارات متبادلة بين الجانبين، ولا أدل على استمرار عرى هذه الصداقة من أن الإمبراطور فردريك الثاني لجأ إلى تحذير السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بخروج لويس التاسع على رأس حملته الصليبية لمهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ – ١٢٤٩، ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية

وسلاطين مصر، إذ حرص مانفرد ابن فريدريك الثاني على مصادقة سلاطين المماليك، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التي ربطت مصر بصقلية، فقد كان مانفرد ابن فردريك الثاني يتبادل الهدايا مع السلطان الظاهر بيبرس، وقد استمرت هذه العلاقة بين الدولتين بعد عهد مانفرد.

أما الجمهوريات الإيطالية التجارية – وبخاصة البندقية وجنوا – فقد ربطتها بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ، فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والمواني الكبر ى يرعى مصالحها ، ولم يكن منتظرًا من الجمهوريات الإيطاية أن تضحي بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي العام ، ولذلك استنكرت إيطاليا – والبندقية على وجه التحديد – إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرص على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وأرسلت رسلها إلى السلطان شعبان تؤكد له أن السفن التي أغارت على الإسكندرية لا تمت إلى البندقية بصلة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه.

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد اضطرتها ظروفها التجارية وما كان بينها من مشاحنات إلى الدخول في منازعات أحيانًا مع دولة المماليك، فإن الوضع اختلف بالنسبة لدول أسبانيا النصرانية مثل أرغونة وقشتالة

وأشبيلية، ويبدو أن حرص الدول النصرانية في أسبانيا على عدم وصول نجدات من دولة المماليك للمسلمين في أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسالمون سلاطين المماليك، من ذلك أن جيمس الأول مالك أرغونة تودد إلى السلطان بيبرس وبادله الهدايا، وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين مملكة أرغونة من ناحية ، ودولة المماليك من ناحية أخرى ، فأرسل جيمس الثاني ملك أرغونة عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يطلب منه تسهيل مهمة الحجاج النصارى الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق رعاية تجار كل بلد في البلد الآخر ، وكانت طلبات ملك أرغونة تقابل بالاستجابة من سلاطين المماليك، مما ساعد على استمرار العلاقة الطيبة بين الطرفين.

كذلك تبودلت الرسائل والهدايا بين السلطان المنصور قلاون من ناحية وألفونس العاشر صاحب قشتالة، أما أشبيلية فإن صاحبها ألفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته، فرد عليه بيبرس بإرسال سفارة تحمل الهدايا، وقد قوبلت سفارة بيبرس بالحفاوة والإكرام في أشبيلية، وبعد انتهاء مهتمها أعد لها ملك أشبيلية سفينة حملتها إلى الإسكندرية.

وجدير بالذكر أن القوى الغربية التي طالما ناصبت دولة المماليك العداء بسبب السياسة الصليبية كانت أحيانًا تسالم المماليك وتطلب ودهم أملًا في

السيطرة على الأماكن المقدسة في بيت المقدس، من ذلك أن فيليب السادس ملك فرنسا أرسل سفارة ضخمة تألفت من مائة وعشرين رجلًا إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٢٠، ومع السفارة كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين، ولكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فرنسا، وأمر بردهم إلى بلادهم.

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لدولة المماليك، حتى إن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق والغرب جميعًا.



علاقة دولة المماليك بالحبشة



علاقة دولة المماليك بالحبشة

كانت الحبشة ترتبط بدولة المماليك من الناحية الدينية، وذلك أن الحبشة دولة نصرانية، وتتبع كنيستها الكنيسة المرقسية بالإسكندرية، وكانت الحبشة تستجلب مطارنتها من مصر، فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين إحداهما لحاكم مصر والأخرى لبطرك الإسكندرية طالبًا تعيين من يشغل كرسي المطرانية من الحبشة، كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه، وعند وصول هاتين الرسالتين والمال، يتصل بطرك الإسكندرية بالسلطان أو الحاكم في مصر ، ويستأذنه في رسامة أحد الرهبان ليشغل كرسي مطران الحبشة.

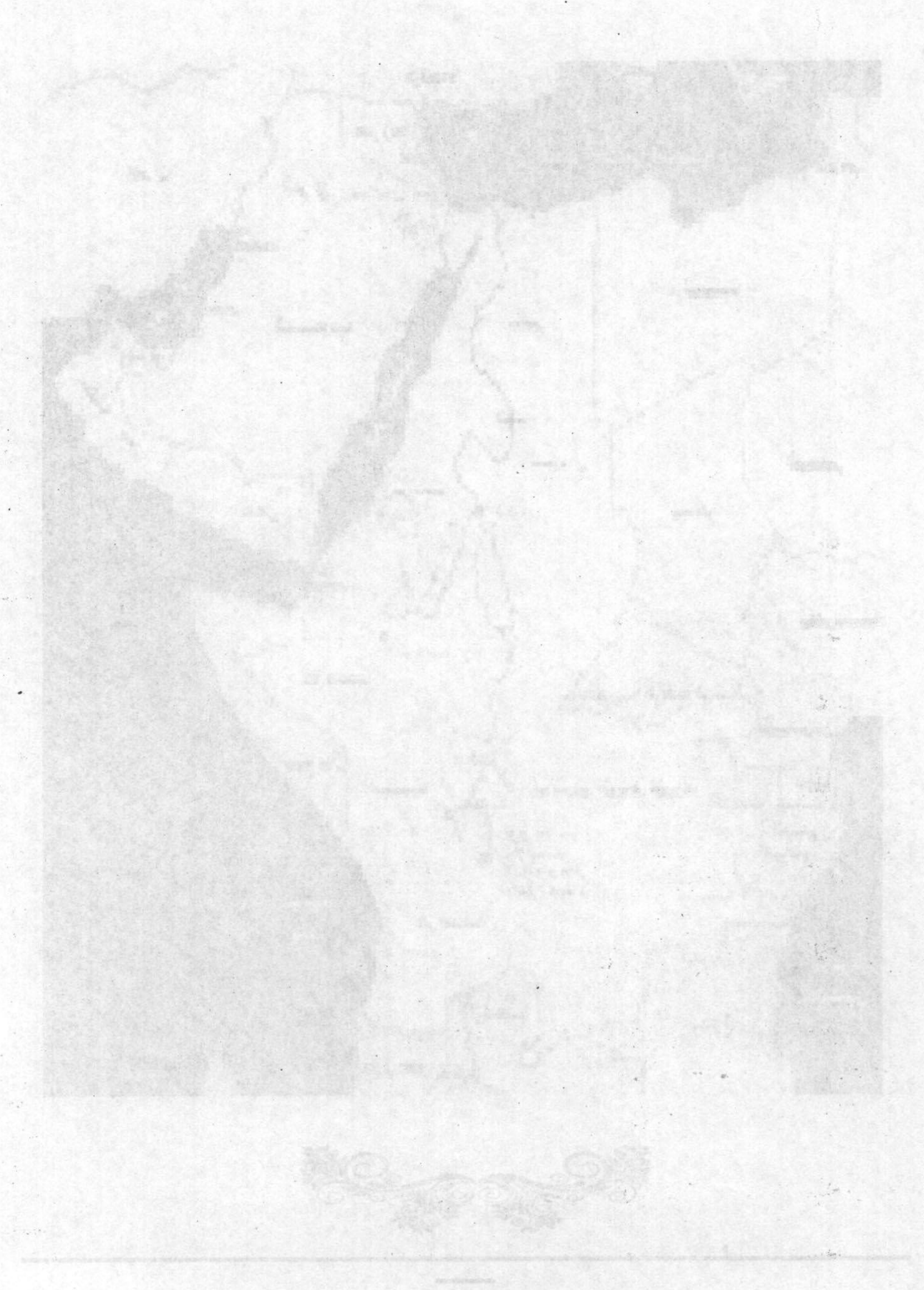
وكانت هذه العلاقة الدينية بين دولة المماليك والحبشة سببًا في اتصالات دائمة بين الدولتين، وهناك سبب آخر لهذا الارتباط، وهو أن الحجاج النصارى من أهل الحبشة كانوا يمرون بمصر وهم في طريقهم إلى بيت المقدس، فكان ملوك الحبشة يطلبون من سلاطين المماليك رعاية هؤلاء الحجاج ، ولكن هذه العلاقة لم تستمر على هذه المودة بين الدولتين، لأن

البابوية المسيحية استغلت وجود جالية كبيرة من الأحباش تقيم في دير بيت المقدس إقامة دائمة في توطيد العلاقة معهم، واستطاعوا استمالتهم إليهم، وجعلهم يتعاونون معهم في الحرب ضد المسلمين، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائيًا من الشام في أواخر القرن الثالث عشر، ويقال إن الأحباش أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب، في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥م، كذلك فكر إسحاق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ – ١٤٢٩) في غزو مصر، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرص وأسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦م، وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوروبا مباحثات في هذا الشأن، ولكنها باءت بالفشل، كذلك فشلت ملوك الحبشة في تحويل مجرى النيل وتجويع شعب مصر، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونة والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى.

ولكن مسألة تحويل مجرى النيل وتجويع شعب مصر قد تجددت مرة أخرى في هذه الأيام من دولة أثيوبيا – الحبشة سابقًا – وذلك عندما قامت أثيوبيا ببناء سد النهضة وسد منديا في مجرى النهل للعمل على تقليل حصة مصر من مياه النيل بمقدار ٩-١٢ مليار متر مكعب، كما أن هذا الأمر سيؤدي إلى انخفاض إنتاج الكهرباء من السد العالي وخزان أسوان بمقدار

٦٠٠-١٢٠٠ ميجاوات، فالتاريخ يعيد نفسه، والصليبيون يعيدون خططهم للقضاء على الإسلام وأهله!! فاعتبروا يا أولي الألباب.





الفهرس



الفهرس

الموضوع	الصفحة